

مجلة ثقافية أدبية تصدر في دمشق

صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

نيسان

١٩٧٧

دمشق - ص.ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

نيسان .. والجلاء .!

بقلم

رئيس التحرير

مع اطلالة نيسان ، شهر الرياحين ، يمتزج في كل عام ، وعلى أرضنا الحبيبة عبق الورود وعبق الذكرى ، عبق دمشق الخالدة ، وعبق ذكرى رجالها الميامين ممن بذلوا دماءهم رخيصة في سبيل بلادهم وأهليهم ، أولئك الذين وقفوا سدا منيعا للذود عن حياض أمتهم ودفع العدوان عنها .. فأينع جهادهم وآتى أكله .. وكان الجلاء .. الذي كتبوا نصوصه بدمائهم ..

ولم يكن الجلاء هو الحادثة المميزة في تاريخ أمتنا المجيد ، تلك الامة التي كتب عليها الجهاد منذ نشأتها الى يومنا هذا ، فكانت في كل معاركها رمزا للاباء والتضحية .. ورمزا للبذل والعطاء يشهد لها بذلك تاريخها الطويل ، ممتدا من قراع الفرس والروم الى يوم تشرين ...

سيبقى يوم الجلاء ذكرى خالدة لنصر الامة ، تملأ القلب ، وذكرى تستنفد الدمع على أرواح شهداء الجلاء وأبطاله ، وسيبقى يوم الجلاء أيضا يوما خالدا ، يدفع بركب شبابنا للمزيد من العطاء والتضحية في سبيل أمتهم الخالدة .

محمد الأديب الأعظم

دريني خشبة

لا أدري لماذا يشفق الكتاب أن ينعتوا النبي الكريم

بالاديب العظيم ؟! هل في ذلك سبة أو فيه حط من قدره

صلى الله عليه وسلم ؟ واذا لم يكن الرجل الذي أوحي اليه

بهذا القرآن أديبا فماذا يكون الاديب ؟..

لقد ترك النبي فينا كتاب الله وسنة النبوة ، وفيهاجوامع الكلم التي لم يؤتها الا هو . ولقد علم بهذين ما لم يعلم فيلسوف بفلسفته ، ولا أديب بأدبه ، ولا نبي بماأرسل به ... أسلوب معجز ، ومعنى معجز ، واتفاق بين الاسلوب والمعنى معجز ، وغرض يشمل كل الكائنات معجز ،وحياة هي البطولة المعجزة .. وأمية لا تعرف القراءة والكتابة يسبح القراء والكتاب في بحر لجي من قرآنهاوحديثها .. علما وأدبا ولغة وبيانا وهدى وتشريعا وأخلاقا ... فماذا يصنع الادب غير ذاك ؟ .

الاديب يترك أثره في حيز محدود من بيئته ، لايام معدودات من زمنه ، ويكون بعد ذلك رجعا كرجع الصدى في تضاعيف ذكرياته ، حيث يكون شعرا في ديوان ، أو قصة يلتذ بقراءتها أفراد ، أو درامة يستمتع بشهودها ملأ من الناس ، ثم ينصرفون فلا تكون لها في أذهانهم الا صورة أو فكرة قد تدفعهم الى فضيلة أو تنهاهم عن رذيلة ... فماذا ترك الاديب الاعظم محمد بن عبد الله من هذا وذاك ؟! أستغفر الله بل ترك أدبا حيا يتغلغل في نفوس الملايين من الاجيال حتى تقوم الساعة . يحضهم على الخير، وينهاهم عن المنكر ، ويستهويهم بصور رائعة من أدبه الحق الذي نسميه الادب الواقعي يشرب قلوبهم المحبة الخيرة النيرة ، ويعمرها بالسلام القائم الدائم ، ويعلمهم الانسانية ، ويحبب اليهم الاخاء ، ويروضهم على المساواة .. الا فيما رفع الله به الناس بعضهم فوق بعض درجات.

قد يقول قائل ان هذه الدعوة من باب اقحام الدين في الادب والادب في الدين .. لان الدين هو الذي صنع كل هذا .. ونحن نقول ان الدين هو الذي صنع كل هذا حقا ، ولكنه صنعه بأسلحة شتى ووسائل متفاوتة ، وقد كان

أمضى الاسلحة ، وأشرف تلك الوسائل ٠٠ هو الادب ٠٠ فالرسول الكريم كان حلو الكلام ، أغر البيان ، طلي المقاطع ذا قدرة عجيبة في تنسيق حجته ، والتدقيق في عبارته ، في غير كلفة ولا صنعة حتى وهو في مواقف الخطابة ٠٠ ولم يحفظ الاثر أنه حصر مرة أو ارتج عليه ، أو التاث عليه القول ، لا على المنبر ، ولا في حلقة الدرس ، بل كان يتدفق ويشقق الحديث اذا اقتضى الموقف الاطناب ، ويقتصر على العظة الصغيرة بلفظها ، الكبيرة بفحواها اذا لم يقتض الحال غير ذلك ٠

ثم هاهم أولاء الانبياء جميعا ٠٠ فمن منهم تحدى قومه بقوة البيان وصوغ الكلام واعجاز الاسلوب ؟! وما ذلك كله ان لم يكن أدبا ؟ وماذا يكون صاحبه ان لم يكن سيد الادباء ؟! ان الله الذي يسر القرآن بلسان محمد قد تحدى الناس أن يأتوا بشيء مثله ، فما استطاعوا ، وما يزال التحدي قائما ، ولسوف يعجز البشر جميعا عن أن يجيئوا بشيء مثل القرآن ٠٠ والقرآن وحي الله ، وقد يسره الله بلسان نبيه ، والقرآن تشريع ليس فيه جفاف القانون الوضعي ، وقصص من النسق الالهي الذي لا يتملق الغرائز بالفتنة في الحياة الدنيا ، بل يسمو بها الى لذائذ الحياة العليا ، ثم عظة بالغة ودعوة الى الحق ، ودستور للناس لا يعتوره نقص ولا تشوبه شائبة ٠

هل الادب قصة أو درامة فحسب ؟! ان كان هذا فقد قص النبي أحسن القصص وأقواه وأكثره حلاوة وطلاوة ، وأشده روعة وتأثيرا ٠٠ وأي قصص أشهى وأحلى وألذ مما يسر بلسان نبيه في آدم ونوح وابراهيم وموسى ويعقوب ويونس وهود ولوط وعيسى من أنبياء الله ؟! ٠

أم يقولون انها أخبار مروية فيما يؤمنون أنها الكتب المقدسة التي أنزل الله من قبل ؟! ونقول أجل ٠٠ ولكن أين هي هذه الكتب التي أنزل الله ؟! أباقية هي على ما أنزل الله لم يعتورها تغيير ولا تبديل ؟ ألم تشحنها أقلام الرواة والنسّاخ بما طاب لهم وبما ندت به أقلامهم ؟ ٠٠٠ أحقاً قد زنى داود ؟ أحقاً قد وقع جميع الأنبياء في الخطيئة ؟ لقد جاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل مما لم تبدله قرائح البشر ، فبرأ الانبياء مما أخذوا به باطلا من الدنس ، ثم روى أخبارهم بلسان صدق علي وبأروع بيان وأدق أسلوب ، ثم حدث النبي بما يشبه أن يكون تعليقاً وتفسيراً فجاء بكل معجب وكل مطرب ٠٠٠ ثم حدّث بالاحاديث القدسية العالية التي مسرحها السماء وملهمها الله القدير ، فأي درامات الكتاب والشعراء أروع مما تحدث به جبريل على فؤاد محمد ، وما حدّث به محمد من تخاصم أهل النار وتحدث أهل الجنة ، والواقفين على الأعراف ، والولدان المخلدين ، والكواعب الأتراب ، ومخاطبة العزيز اللطيف لمن فاز من عباده ، وغيظ الكافرين وما يقع بينهم ابليس من شحناء ، وموجدتهم على الشياطين والنار تؤزهم ٠٠٠ ؟

هذا هو القصص الحق الذي لم تبهرجه يراعة مؤلف ، ولم يختلقه خيال روائي ٠ وهذا هو قصص الله الذي خلق الانسان علمه البيان ٠٠٠ الله الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ٠٠٠ الله الذي أرسل للناس نبياً عربياً من الاميين ، فقضى أن تكون أمية عجيبة معجزة تفهم كل شيء وتعي كل شيء ، وتبهر المتعلمين والدارسين بما لا يستطيعونه ولا يقدرون على مثله أو بعضه ٠٠٠ أمية أعدها الله لهذا الأمر العظيم اعداداً لا تقوى جامعاتنا الحديثة على شيء مثله ٠٠٠ أمية أبوتها في بني هاشم ، وخئولتها في بني زهرة ، ورضاعها في سعد بن بكر ، ونشأتها في قريش ، وزواجها في بني أسد ، وهجرتها الى الأوس والخزرج ، فانظر كيف تقلبت في القبائل فتمرست بها ، ووعت لغاها ، ووقفت على أسرار بيانها ، فلما بعثها الله لهذا الأمر لم تضق ذرعاً بأحد ، ولم تضق فهماً بلسان أحد ، بل كانت تكلم كلا بلسانه ، وترد على كل بلهجته ٠ بل هي قبل أن يبعثها الله لتبليغ رسالته كانت تحب الادب وتشغف به ، فكانت تتردد على الاسواق تصغي الى الشعراء والخطباء ، وتحفظ من الخطب ولا ترى حرجاً في أن تروي منها (١) ٠

---

(١) في البيان والتبيين ٢٠٣/١ ان النبي (ص) سمع قس بن ساعدة وقال فيه « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، فاسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ٠ » وجاء في كتب الأدب غير ذلك ٠

علل أحد البصريين أمية الرسول الكريم ، فقال : « ان الله انما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ، ومن العلم بالأنواء والخيل ، وبالانساب والاخبار ، وتكلف قول الاشعار ، ليكون اذا جاء القرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على على أنه من الله ... وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب والكاتب ومن الخطيب والناسب ، ولكن ليجعله نبياً ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ، فانما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ليجلي له الكثير ... » .

وقد تولى شيخ أدباء العرب أبو عثمان الجاحظ (البيان ١ / ٢٣٠) نقض هذا الكلام فقال : « وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد الا الخير ، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة ، وأداة قريض الشعر وجمع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة الى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ، وكان اذا احتاج الى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، واذا احتاج الى الخطبة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ولو كان في ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ؛ ولكنه أراد ألا يكون للشاعر متعلق عما دعا اليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وان رق ، وليكن ذلك أخف في المؤنة ، وأسهل في المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقريض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما في غير ذلك فانه اذا شاء كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته أكمل ... الا أنها كانت مصروفة الى ما هو أبعد ... وبين أن يضيف اليه العادة الحسنة ، وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له فرق ... ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره في حال معجزة قط ، بل لم يره الا وهو ان أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وان قصر القول أتى كل على غاية كل خطيب ، وما عدم منه الا الخط واقامة الشعر .. الخ » .

فالجاحظ هنا يحامي عن معرفة النبي لآداب العرب ـ وهو ما يعنينا ـ وعن المامه بما كان فخر قومه ومحل نبوغهم ... ولما كان أعز ما يفتخر به العرب هو البيان فانه لم يمنع النبي مانع اذا أراد البلاغة أن يكون أبلغ البلغاء ، واذا أراد الخطابة أن يكون أخطب الخطباء ، وانه ان أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وان قصر القول أتى على غاية كل خطيب .. »

وهذا دفاع مجيد من شيخ الأدباء العرب عن النبي الأديب الأعظم في معرض ما فهم أحد علماء البصرة من أمية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو دفاع رجل كان يهب حياته للأدب ، وكان يعنى بأدب الرسول خاصة ، وكان يصف كلامه فيقول : « هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : « وما أنا من المتكلفين » ، فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق » .

« وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا

يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً ... » ، (البيان ٢ / ٢٨) .

والذي وصف به الجاحظ كلام الرسول قول حق ، وهو كان يفضل به كلامه صلى الله عليه وسلم على كل كلام العرب ، أما نحن فنجعل حكم الجاحظ أعم وأشمل . فليس في كلام أحد من الفرنجة قاطبة يشبه كلام الرسول فيما رسمه الجاحظ ... وقد يقول قارىء غير مسلم : « كاتب مسلم متحمس للرسول فهو لا يستطيع ان يقول غير هذا ! » كلا والله ... فلقد قرأت ودرست أدب الأقدمين شعراً ونثراً وخطباً ؛ ولقد قرأت ودرست أدب النهضة في جميع الممالك الأوربية ؛ ولقد قرأت ودرست ووازنت بين أدباء عصر بركليس وأدباء عصر اليصابات ، وأدباء عصر لويس ، وأدباء القيصرية الروسية ، فلا والله ما وجدت أحدهم يرتفع الى أدب الرسول ولا يحكيه غزارة ورقة وازدحاماً بالمعاني وشمولا للأغراض .

وهذه هي خطب ديموستين في التبغيض في الارستقراطية والتبشير بالديمقراطية ... أين هي من هذه المساواة العجيبة التي أقامها محمد بين هذه الملايين بقوله : انه لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ؟ بل أين هذا الخطيب الوضيع المرتشي الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، والذي فر من مواطنيه اليونانيين ، حتى اذ لاحقوه وضيقوا عليه عمد الى السم ليضع حداً لمهزلة حياته الفياضة بالمخازي ؟ أين هذا الخطيب الذي يحتفظ الأثر خطبه كأنها المثل الأعلى للخطابة من الرسول الكريم الذي لم يكن ينطق عن الهوى ، والذي ألف يخطبه بين أشد القلوب عنجهية وأفدحها جاهلية وأكثرها عصبية ، فخلق منها أمة تعبد رباً واحداً بعد أرباب ، وتنتشر من الصحراء بمصابيح الهداية فتملأ المشرقين والمغربين نوراً وهداية وحكمة وعرفاناً ؟ .

ثم خطيب الرومان شيشرون ! هذا الرجل الذي فضح مارك أنطوان بخطبه الرنانة .. ماذا ترك لخير الانسانية من كل ما كتب وخطب ؟ لقد كان محامياً مدرهاً ، فهل كسب للانسانية قضية كهذه القضية التي كسبها لها محمد بن عبد الله ؟ لقد كتب في القانون والفلسفة والأخلاق ، فهل حل معضلاتها المعقدة كما حلها محمد بن عبد الله النبي الأمي ؟ ولقد حفظ لنا الأثر كثيراً من خطبه ومقالاته ، فهل فيها ما يرتفع الى بيان محمد وبلاغة محمد ؟ هل استطاع أن يضع للرومان دستوراً يحمي الجمهورية ويحول دون قيام الامبراطورية كهذا الدستور الذي أوحى به الى محمد ، والذي يَسَّره الله بلسان محمد ؟ .

ثم هذا دانتي ... هذا الكاثوليكي القح .. الذي يرفعه مؤرخو الأدب الى ذروة المجد بما بهرج في الكوميديا الالهية ؟ ماذا جاء به من السحر في هذه المنظومة ؟ لقد أثبتنا بما نشرناه في « الرسالة » ان كل شيء رائع في هذه القصيدة ليس من صنع دانتي ، بل هو مما سرق دانتي من أخيلة[1] القرآن وبيان الأحاديث في وصف الجنة ووصف الجحيم ، وذلك بما انتشر من ثقافة القرآن وثقافة الاحاديث بعد الحروب الصليبية وقبلها عن طريق الأندلس وعن طريق صقلية الى فرنسا ثم ايطاليا .

ثم هذا ملتون .. فأين ما جاء في فردوسه من الحرب بين الشيطان وبين المسيح وأجناد المسيح مما جاء في القرآن والحديث من تحاور بين الله العلي وبين ابليس ، وبين أبليس وبين ملئه الذين أغواهم فأدخلهم النار ثم تبرأ منهم وهو يرسف معهم في سواء الجحيم ؟!

ثم هذا جون بنين ! فماذا جاء به في « رحلة الحاج » مما ليس له مثل بل أمثال تبذه وتزري به في أدب محمد النبي الامي ؟

وهذا بيكون الاديب النائب العام والكاتب الاخلاقي الفيلسوف المرتشي الذي فضل عليه فضله ، ولم يكن عنده من الوفاء ما يجزي به ذوي الايادي الفرعلية ، ماذا كتب في فصوله في الاخلاق مما لم يسبقه اليه الرسول الاعظم ؟ .

والادباء العظام في عصر لويس الرابع عشر : بيير كورنيل وديكارت وموليير وراسين ولافونين ، اننا نقولها كلمة حق لا تصدر عن حماسة فحسب ، بل عن تروية ويقين:

(١) نحن نؤمن أنه ليس بالقرآن خيال انما به الحق المحض ، انما نحن هنا بمعرض دراسة أدبية فحسب .

ان المثل الرائعة التي زاد بها هؤلاء في تراث الفكر الانساني والثقافة الانسانية هي قل من كثر مما ضاعف به النبي هذا التراث ، ونحن نقول المثل لان النبي لم يكن ضحاكا كموليير ولا فيلسوفا كديكارت ولا مؤلف درامات كراسين ، بيد أنه مع ذاك أنشأ للانسانية مُثلا أسمى مما أنشأ هؤلاء ، وأنشأها كلها عن طريق الادب ·

والادباء الذين مهدوا للثورة الفرنسية ··· فولتير وديدرو وبومارشيه وروسو ·· هل أنشأوا ثورة كهذه الذي أنشأها محمد بن عبد الله وقام بها وحده ؟! وأين هي الثورة الفرنسية التي انتهكت فيها الحريات باسم الحرية ، وخضعت فيها الكرامات والشرائع لجنون الشعب وعربدة النساء ولوثة الاوشاب من تلك الثورة العظيمة في سبيل الحق وخير الانسانية وانتشال العقل من براثن الاغوال الحجرية التي كان يعبدها الناس ·· هبل ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى وضمار ؟! أي الثورتين كانت أروع وأيهما كانت أعود بالخير على الناس وعلى الافهام ؟!

لقد كتب روسو انجيل الثورة ، فهل رسم فيه ما رسم القرآن للناس أجمعين في كل العصور ؟! وهل كاتب انجيل الثورة كهذا الوحي الذي يسره الله بلسان محرر ؟!

ثم هؤلاء منشئو الادب الالماني: جوته صاحب فاوست، وشيللر صاحب وليم تل ، ولسنج مؤلون لاوكون ، وهم الذين أعدوا الذهن الالماني اعداده الذي غبر عليه قرن ونصف قرن ، الاعداد الذي لا يعرف شيئا وهو المثل الاعلى، غير القوة والغلب ، هل جعلوا ألمانيا تقهر العالم في أقل من عشر سنين كما جعل محمد أمته تصنع ذلك ؟واذا قدر الالمان أن تصنع ذلك ، فهل كانت تنشر الامن والطمأنينة والعلم والنور ودين الحق بالسلام كما نشر العرب ذلك جميعا في ربوع العالم ؟ أم انها كانت تستعبد الناس وتذلهم وتقول لهم أنتم ساميون وحاميون ·· و ·· آريون ·· أما نحن فآريون نورديون ؟! في حين يقول محمد للناس : « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى !! » ·

أم أدباء روسيا : لرمنتوف وجوجول وتولستوي ودوستوفسكي وترجنيف وبوشكين وجوركي ؟! ماذا أسلف هؤلاء جميعا ؟! لقد مهدوا بأدبهم الباكي المتوجع البائس الفقير الغارق في الدموع لهذه الشيوعية المخربة التي تستبد بالناس وتسومهم الخسف وتهدم مساجدهم وكنائسهم وبيعهم وتبيع نساءهم باسم الدولة ·· فكأنهم تخلصوا من راسبوتين ليقعوا في براثن ستالين !! ·

وبعد ·· فنحن لا نحصي أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى اليه أدبهم وبين ما انتهى اليه الرسول الكريم ·· ونحن لا نقص من الاداب الرائعة التي لها قيمتها ولها أثرها لنرفع أدب نبينا بغير الحق ، بل نحن نقارن بين مُثل ومُثل ونوازن بين خير كثير أصاب الانسانية على يد رجل واحد وخير كثير أصابها على أيدي كثيرين ، وشتان بين الادبين ·

أما أن يقول أحد أن الادب هو القصة ، فلقد قص الرسول أحسن القصص وأروعه ، في أحسن عبارة وأقوى أسلوب ·· وأما أن يقول أحد ان الادب هو الشعر ، فما كان محمد شاعرا ، ولم ينبغ له أن يكون شاعرا ، ومع ذاك فقد يسر الله بلسانه في القرآن من المعاني والاوصاف والامثال والتشريع والحكمة وجمال الاداء ، واعجاز التراكيب ، ما لم يتيسر لشاعر من شعراء العالمين · وكذلك حديث رسول الله ، فهو ثروة ثانية من أروع صور الاداب ، ومنهل عذب للواردين ·

وأما أن يقول أحد ان محمدا لم يؤلف دراما ، فحسبه أنه كان يمثل درامات الحق فوق مسرح الواقع ، وليس في الادب المسرحي جميعا ما هو أروع من اسلام حمزة أو موت حمزة ، واسلام عمر أو مقتل عمر ، وهجرة محمد من وطنه العاق الى مهاجره الصادق ، وصبر أصحابه على أذى قريش وكفران قريش ، ورمي المنافقين زوج الرسول بالافك وصبر عائشة لذلك ·· وهذه المئات والمئات من مشاهد الدرامة الكبرى التي قام بأدائها الرسول ، والتي رواها وقص فصولها في واقعه ، ويسر الله لسانه بذكرها في قرآنه ·

صلى الله عليك يا رسول الله اذ يسألك أبو بكر : لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدّبك ؟ فتقول : أدّبني ربي فأحسن تأديبي !·

(ـ ١٩٣٩ م ـ)

خير الدين الزركلي

الدكتور صفاء خلوصي

ان المرء لا يدهش حين يجابه بمجموعة من الكتب وضعها باحث اقتصرت أيامه كلها على البحث في موضوع واحد ، ولكن يمتلكه العجب كل العجب عندما يرتطم بنصب تذكاري هائل من مؤلفات تاريخية وأدبية وميلوغرافية ودواوين شعرية ، ويقال لك : انها انتاج رجل واحد ..رجل ركب متن الاخطار والاحداث ثلاثة وثمانين عاما ، فحكم عليه بالاعدام مرتين ، وكان صحفيا وأستاذا ووزيرا وسفيرا حتى ساعة وفاته ، ولم ينتزع القلم من بنانه الا ملاك الموت ، ليوقف سيل شعره عند حد ، فتقف مشدوها حائرا تتسائل : أنى تسنى له ذلك ، ثم تمضي في تساؤلك قائلا : من أي شعب هو ؟ .. فيقال لك : انه كان عربيا ومن العروبة في الصميم ... انه خير الدين الزركلي الذي صعد الى الرفيق الاعلى في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦ ليبدع في أخراه ما أبدع في دنياه.

بزغ هذا الغرس الكريم في بيروت في الخامس والعشرين من حزيران (يونيو) ١٨٩٣ ، فكان سوري الاصل لبناني المولد ، دمشقي المنشأ والمربى ، وما عتم أن نما وترعرع حتى غدا دوحة باسقة تظلل أفنانها مصر والشام والسعودية ، ويمتد أريجها الى العراق والخليج ودنيا افريقية العربية ، ان صاحب « الاعلام » معجم مشاهير العرب برجالهم ونسائهم ، ويكفيه وحده تكريما وتخليدا ومأثرة باقية على لسان كل علم من أعلامه .

كان الزركلي كاتبا ومؤرخا درس ودرس بالمدرسة الهاشمية بدمشق ، وأصدر مجلة ـ الاصمعي ـ الاسبوعية ، فقضت عليها السلطات العثمانية ، فاتجه صوب بيروت والتحق بالكلية العلمانية ، قسم اللغة الفرنسية ، حيث

درس تاريخ العرب وآدابهم ، واتفق مع أحد أصدقائه بدمشق سنة ١٩١٨ فأصدر – لسان العرب – و – لسان الحال – فأوقفتا عن الصدور ، فشارك في اصدار صحيفة – المفيد – ٠ وفي هذه الفترة التهمت ألسن النيران مجموعته الشعرية « عبث الشباب » ٠ وفي صبيحة اليوم الذي سقطت فيه حكومة فيصل سنة ١٩٢٠ ودخل الفرنسيون دمشق غادر الزركلي عاصمة الامويين ، آخذا سمته الى فلسطين على نحو ما فعل فيصل نفسه ، ثم الى مصر فالحجاز ، فحكم عليه الفرنسيون غيابيا بالاعدام ومصادرة أملاكه ، فتجنس الزركلي بالجنسية العربية في الحجاز ، والملك يومذاك الحسين بن علي الهاشمي ، فانتدبه لمساعدة ولده الامير عبد الله أثناء انشاء حكومة الاردن بعمان ٠ فعين مستشارا له، فمفتشا عاما للمعارف ، ثم رئيسا لديوان رآسة الحكومة ، وهنا رأى الفرنسيون ايقاف حكم الاعدام فيه ، فزار دمشق٠ ٠ وعلى أثر خلاف بينه وبين الامير عبد الله ، تخلى عن منصبه قاصدا القاهرة لينشيء المطبعة العربية ، حيث طبع فيها بعض كتبه ، فلما تدهورت حالته الصحية باع المطبعة وعمل بالصحافة في فلسطين أربع سنوات ، وأصدر صحيفة – الحياة – ثم – يافا – فأغلقتهما سلطات الانتداب البريطاني ، ولما علا نجم ابن سعود في الحجاز ذهب اليه ، فأسند الى الزركلي منصب مستشار للوكالة ، ثم المفوضية العربية السعودية في مصر ٠ وكان الزركلي أحد المندوبين السعوديين اللذين وقعا ميثاق جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٦ ٠قام بادارة أعمال وزارة الخارجية السعودية بجدة، وعين سفيرا ومندوبا فوق العادة للملكة العربية السعودية في المغرب ، فكان عميدا للسلك الدبلوماسي هناك حتى سنة ١٩٦٤ ، وعين بعد ذلك سفيرا في ديوان وزارة الخارجية السعودية بجدة ، وقد مثل السعودية في العديد من المؤتمرات العربية ، وأختير عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٦ ٠

والزركلي شاعر من شعراء الرعيل الاول ، تمسك بعمود الشعر وديباجته في أزهى فتراته وأبهاها ٠ ولا أدل على شاعريته ووطنيته المتقدة من « نشيد الشهداء » الذائع الصيت والذي يقول فيه الزركلي ، من بحر الخفيف الحزين الوقور ، مع تفاعل حتامية المتدارك والرجز ، لاضفاء الحماسة عليه :

ابت العين ان تذوقا المناما
والمنايا تغتال منا الكراما
شهداء العرب الاباة سلاما
ايها الحافظون فينا الذماما
أيها الموقظون فينا النياما
جدتم بالنفوس
بتم بالرموس
ما عهدنا الشموس
تمسي رماما

وفضلا عن نشيد الشهداء ، فللزركلي قصائد أخرى في شهداء العرب واندلاع نار الثورة في الحجاز ، اشار اليها الاستاذ انيس المقدسي – رحمه الله – في كتابه « الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث » فكان مما استشهد به قوله : منها قصيدته التي مطلعها :

نعى نادب العرب شبانها
فجدد بالنعي احزانها

الى ان يقول :

فأبكي على غرر المسلمين
اباة المذلة قرانها
وابكي على آل عيسى المسيح
نعت لغة العرب من أحكموا
ثم العرانين صلبانها
لسان قريش وتبيانها

ويشير الزركلي في قصيدة اخرى فظائع العثمانيين ، فيقول :

عتا احفاد جنكيز ، فساقوا
سلائل يعرب سوق العبيد

وله قصيدة بعنوان « الشهداء » غير النشيد الذي اوردناه آنفا ، يقول فيها :

هو الثأر ادركه الثائرون
اشجى فروقا وسلطانها

و « فروق » اسم من اسماء الاستانة ، على ما قيل ،

كانت تفرق بين الحق والباطل ، وصاح الزركلي سنة ١٩١٩ صيحته الجبارة :

فيم الونى ، وديار الشام تقتسم

أين العهود التي لم ترع والذمم؟..

وهي نيف واربعون بيتاً ، ونظم الزركلي قصيدته التي عنوانها « الفاجعة » في وصف واقعة ميسلون ودخول الفرنسيين دمشق ، استهلها بقوله :

الله للحدثان كيف يكيد

بردى يغيض وقاسيون يميد

« قاسيون » كما هو معلوم ، الجبل المشرف على غوطة دمشق ، وقد دفن بين منحدراته وباب قاسيون العديد من الانبياء والشهداء والصالحين ، ثم يصف الجيوش وانقسام الزعماء على أنفسهم ، فيقول :

خدعوك يا ام الحضارة ، فارتمت

تجنى عليك فيالق وجنود

وكان الزركلي مجدداً في التراكيب الشعرية ، كما في قصيدته التي يقول فيها :

ابكي ديـاراً خلقت للجمال

ابهى مثال

ابكي تراث العز ، والعز غال

صعب المنال

ابكي جلال الملك ، كيف استحال

الى خيال

وجرب الزركلي حظه في ضرب من الموشحات الجديدة ، فنظم « نشيد الصباح » :

ما العيش ان تنعم في ظل الاراك

وان ترى العالم ، وهو لا يراك

لا بد للساكن يوما من حراك

ان الحياة لجهاد وعراك

شر الاماني اماني الحالم

ما بلغ الغاية خير الحائم

جهداً وروم

ابتسم الفجر ، فقل للنائم

حسبك نوم

ولم يكن الزركلي في النثر أقل ابداعاً منه في الشعر . وقد وضع العديد من المؤلفات ، فمن مؤلفاته كتابه « ما رأيت وما سمعت » وهو صدى لرحلاته في العالم العربي ، ولا يزال بعض كتبه مخطوطاً لم يقيض له النشر ، فمن ذلك كتابه « الملك عبد العزيز في ذمة التاريخ » و « صفحة مجهولة من تاريخ سوريا » والجزء الثاني من قصائده الموسومة ب « ديواني » ، كما ان له قصة شعرية بعنوان «ماجدولين والشاعر» ، وعلى ما أعلم أعظم ما ألفه الزركلي هو – كما اسلفنا – كتابه « الاعلام » الذي صدر بطبعته الاولى سنة ١٩٢٧ ثم وسعه فصدرت مجلداته العشرة في الستينات – كما أسلفنا – وهو معجم تراجم لمشاهير العرب ومن اشتغل بالعربية وآدابها من المستعربين وأساطين الاستشراق ، ويعد بحق مرجعاً لا يستغنى عنه باحث عربي ، ويكاد يكون في كل مكتبة خاصة وعامة ، وقد نهج فيه الزركلي نهجا أبجديا ميسراً ، وقدم في نهاية كل ترجمة المصادر والمراجع ، واعتمد على الاسماء الاولى لا الالقاب ، ولكن اذا ما عرفت اللقب احالك على الاسم ، وقد اغناه بالصور الضوئية التي زادته ورونقا ، فغدا كنزا تراثيا للمعاصرين والاجيال المقبلة .

ففاجعة العربية في الزركلي ، اذن ، عظيمة . فقد فقدت فيه ، كما رأينا ، عدة رجال عظام في رجل ، اذ كان شاعراً وكاتباً وخطيباً وبحاثة فضلا عن كونه استاذاً وسياسياً ودبلوماسيا ، ولكن ما مات رجل خلف وراءه كل هذه الثروة الطائلة من الجهاد السياسي والعمل الفكري ، فيه المقتدى لكل طامح الى مجد مترامي الاطراف متعدد الوجوه والمناحي . واي مجد اعظم من المجد الذي شاده خير الدين الزركلي ، واي ذكرى أخلد من ذكراه ؟...

اكسفورد

صفاء خلوصي

صبوة شاعر

اسعد حبيب يوسف

رأيت في ناهديك البدعة العجبا | أكلما أوجسا من عاشق وثبا
فرخا حمام أطلا خلف عشهما | يمارسان الهوى والغنج واللعبا
قد اشرأبا على عجب يهزهما | في الاسر مجدان : حسن مترف وصبا
كلاهما يحسوان النور من ظمأ | كأنما ينقران الحب والعنبا

★ ★

عجبت للجوزلين اللاهيين هوى | يغردان بلاهم وقد صلبا
يدغدغان عذاباتي بغنجهما | وكلما عذباني في الهوى عذبا

★ ★

عمدت بالحب قلبي من طفولته | ورضته في ميادين الصبا فصبا
فالله أبدعني قلبا بلا لهب | والحب أومض فيه الشعر واللهبا
كم أبحرت في رؤى عينيك خاطرتي | بلا شراع ، وكم طوفت مغتربا ؟!
أطوف بين الظلال الوارفات فما | أحلى النخيل، وأندى الظل والرطبا !!
اني لألمح في عينيك خارطتي | بلا حدود ، فمالي لا أرى العربا ؟!!

اللّهجات العامّية والفصحى

لا خلاف بأن اللهجة العامية قد تكونت من اللغة الام، وأنها قد استمدت معظم ألفاظها وتعابيرها منها • ومع هذا فان العامية في أي قطر عربي تختلف عن مثيلاتها في الاقطار العربية الاخرى ، بل وان اللهجات في المجموعة الواحدة تتنافر وتفترق وأنه من الصعوبة بمكان التقاء هذه اللهجات العامية المتعددة (١) وبخاصة العراقية والمغربية لتأثر الاولى بالفارسية والثانية بالبربرية •

• صبحي مارديني •

١ ـ قسم علماء اللغة اللهجات العربية الى خمس مجموعات هي: الحجازية والمصرية والشامية والعراقية والمغربية ، ووجدوا ان المجموعتين : الحجازية والمصرية اقرب المجموعات الى الفصحى لعدم اختلاط أبنائها باقوام اعجمية •

ولناخذ مثالا على اختلاف اللهجات في المجموعة الواحدة جملة : (هذا هو او ذاك هو) في مجموعة اللهجات الشامية :

كهنه : هاك هو هنا

كو : هاك هو

كوا : هاك هو

كوانه : هاك هو هنا

ليك ـ ليكو ـ ليكوكه : لا هاك هو

أحو : والاغلب أنها محرفة من : (أهو) المصرية وأصلها : (ها هو) •

شحو ـ شحوكه : وهي تحريف (أحو) :

هذاك : هذا هناك وهي أفصحهم •

ونتيجة لهذا نجد أبناء اللهجات العربية يتدرون فيما بينهم على الالفاظ الغربية في محادثاتهم وقد يصل بهم الامر الى السخرية والتهكم ، وربما تبعه نفور ، ثم انزواء • وهذا ما تأباه لامتنا العربية التي بدأت طلائعها الواعية المثقفة تتطلع الى وقت تلتحم فيه شعوبها كافة لتكون كيانا واحدا ودولة واحدة •

على هذا نجد أن مهمة الاديب ليست ازالة الفوارق بين اللهجات ، وانما التقريب بين اللهجة واللغة لينطبقا بعضهما على بعض ويصبحا شيئا واحدا ، وبذا تزول الفوارق وتمحى الاختلافات ويكون التفاهم الصحيح الكامل بين شعوب هذه الامة •

هذا الاختلاف الحاصل بين مجموعات اللهجات ، بل بين لهجات المجموعة الواحدة يرد الى تباين البيئة والمناخ والجوار ، والى درجة اللقاءات بين شعوب اللغة • والى مقدار اقتراب العامية من الفصحى أو ابتعادها عنها •

ففي الاصل كان أبناء اللغة الواحدة يعيشـــون في أرض واحدة ، ثم ضاق بهم المكان فارتحلوا طلبـا للعيش وسعيا وراء الرزق ، وتفرقوا في أماكن متباينة متغايـرة فيما بينها ، فتأثرت كل جماعة منهم بطبيعة المناخ ومتطلبات البيئة وحكم المجاورة لامم غريبة عنهم فالتوت ألسنتهم ليونة أو خشونة واختلف نطقهم رقة أو فخامة ، وتصرفوا ببعض الكلمات لتلاءم والبيئة الجديدة ٠ وربما اشتدت بهـم الحاجة الى استعارة ألفاظ من الجوار تسد النقص الـذي أصاب لغتهم ، فتتكون بهذا اللهجة مبتعدة عن اللغة الام وعن اللهجة المجاورة ، ثم تلعب العزلة دورها الطبيعي فتعمق هذا الابتعاد ، وتضخم الفروق وتبرز التناقضات فيبتعـد الفرع عن الاصل والفرع عن الفرع ، ثم تتحول اللهجات الى لغات ، كما حدث للاتينية ـ في العصور الوسطى ـ عندما تحولت لهجتها : الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية الى لغات انفردت كل واحـدة منها بخصائص ومميـزات خاصـــة ٠

وقد كانت العربية مهددة بمثل هذا المصير ، اذ أن لهجاتها المتعددة تعرضت لظروف أعتى وأقسى مما تعرضت له اللاتينية ، فقد انتشرت على مساحات واسعة من الارض تفصـــل بينهما صحاري كبيرة مهلكة جعلت امكانيـــة السفر والاختلاط شاقة ومضنية ، فعاشت الشعوب العربية في عزلة تامة بعضها عن بعض ، أضف الى هذا خضوعها ـ عدة قرون ـ لامم أعجمية كانت تفرض عليها لسانها وثقافتها وقوميتها ، بالرغم من هذا فقد بقيت اللغة العربية واحدة وبقيت لهجاتها لهجات ٠

يفسر ميزة التماسك والخلود ـ هذه التي انفردت بها العربية دون سائر اللغات ـ وجود القرآن الكريـم الذي كان عاصما لالسنة العرب ومثلا أعلى للغتهم حـين تتنافر الالسنة وتتعدد اللغات ٠

وتبرز لنا عظمة القرآن أكثر ما تبرز ـ في الابقاء على العربية قوية متماسكة صامدة لصروف الدهر وعواتي الزمن ـ حين ننظر الى مرتسم العالم متوهمين خطا مستقيما يبدأ من عمان على الخليج العربي وينتهي في نواكشوط على المحيط الاطلسي ، فان هذا المستقيم يشتمل على لغة واحدة فقط ، بينما نجد المستقيم الذي يوازيه ويساويه في أوروبا ينتظم أكثر من عشرين لغة مختلفة ، ومثلـه المستقيم المار في افريقيـة ٠

في هذا العصر ـ عصر الحضارة والعلم ـ يقـوى ايماننا ويشتد تفاؤلنا باقتراب العامية من الفصحى وبزوال التناقض بينهما بسبب تقدم العلم وانتشار المعرفة بـين مختلف طبقات الشعب ٠ وبقدر ما تتمكن الشعوب من تعلم لغتها وفهمها فهما جيدا ، بقدر ما تقصر المسافة بين العامية والفصحى وتزول الفوارق بينهما ٠ ومن هنا تبرز قيمة اللغة واتقانها كعامل هام من عوامل وحدة الشعور بين شعوب الامة الواحدة ، ونحن على يقين أنه لن يكون في المستقبل القريب لهجة تدعى العامية وانما ستتطور الى لكنة خاصة محببة ، وهذه لن تزول الا بزوال تأثير البيئة والمناخ ٠

يجدر بنا بعد هذه العجالة حول أصول اللهجات وتطورها أن نذكر عددا من الوسائل والطرق التي تعتمدها العامية في ابتكار مفرداتها وصوغ تعابيرها الدارجة ، ولـن تكـون شاملة كاملة فهي قد تنطبق على لهجة دون أخرى ، كما وهي أكثر من أن تحصر بعدد أو يشملها قياس ٠

وقد استنبطنا غالبية هذه الوسائل من مجموعـة اللهجات الشامية المحلية ، غير أنها صالحة ـ كمنهـج وطريقة ـ لكل دراسة من نوعها ترغب في الوقوف علـى المراحل التي تمر بها الفصحى لتصبح عامية ٠ وذلـك في سبيل القضاء على العامية واجتثاث جذورها من الاعماق ٠ مثلنا في هذا مثل الطبيب يشخص الداء ليصف الدواء ٠ وعلينا أن نضع نصب أعيننا ـ في محاولة معرفة أصـول العامية ـ هدفين تسعى لهما العامية في تحويرها لالفـاظ الفصحى وهما :

١ ـ السهولة في النطق ٠
٢ ـ البراعة في التعبير ٠
فطبيعة المحادثات العادية وانجاز الاعمال اليومية تتطلب هذين الهدفين ، ولا ننسى تأثير النساء والاطفال في انتشار العامية وذيوعها ، لما يعمد له هؤلاء من ترقيق للكلمات وتليين أو تبديل في الاحرف وحذف لبعضها وزيادة بعضها الاخر ليتناسب وطبيعة نطقهم وقدرات أصواتهم ٠

وهذه بعض وسائل العامية في تحوير الفصحى وتشويه اللغة :

١ ـ التبديل :

ويكون بتبديل حرف بآخر لا فرق بين صحيح وعلة مثل :

جلب : جاب ـ أين : وين ـ ثعلب : سعلب أو تعلب برتقال : بردقان أو بردغان ـ قرية : جرية ـ ابريق : ابريج ـ يعطي : ينطي ـ ذهب : زهب ٠

٢ ـ الرتيب :

وفيه تلجأ العامية الى الاخلال بترتيب الاحرف في الكلمة الواحدة مثل :

ملعقة : معلقة ـ جاء : اجا ـ رصيف : صريف ٠ مسرح : مرسح ـ قبض : قضب ـ مسك : كمش (مع تبديل السين بالشين) ـ عتيق : قتيع (بترقيق القاف) ٠

٣ ـ الترقيق :

يرقق العامي الحرف بغية التخفيف من قساوته أو تجميله مثل :

قل : آل أو جال أو كال ـ وفي المصرية : جميل ـ جميل ـ شمس : سمس ـ جوزة : زوزة ـ بطل : بتل ـ ضبع : دبع ـ فقر : فأر ٠

٤ ـ الحذف :

تحذف بعض الحروف طلبا لخفة النطق وسرعة التعبير مثل :

هذا الوقت : هلق أو هلأ أو هلقت ـ ويلك : ولك ٠

هذه اللحظة : هلحظ (وقد سمعتها من اعرابي) ٠

هذه الساعة : هسع أو اسع أو اسا ـ وجهك : وجك

وفي المصرية ياولد : ياول ، ياود ـ جاء : جه ٠

٥ ـ الزيادة :

يزاد أحيانا في الكلمة حرف لا معنى له الا الزيادة مثل :

هذا لي : هذا الي ـ لك تصبح : الك ٠

٦ ـ الالحاق :

ويكون بالحاق حرف أو أكثر في الكلمة للدلالة على الاستمرار أو الاستقبال :

مثل : بيكتب ، عم يكتب ، راح يكتب ٠

أو في آخر الكلمة للدلالة على الحرفة مثل : عربجي (١) ٠ أو النفي مثل : بقدرش ـ بعرفش ٠

٧ ـ النحت :

ويكون باشتقاق كلمة من كلمتين بعد حذف لبعض حروفهما مثل :

لاي شيء ليش (لماذا) أي شيء : شو (ماذا) ٠

٨ ـ الاشباع :

يشبع العامي الحركات انسياقا وراء انسياب اللفظ، فتقلب الفتحة ألفا والضمة واوا والكسرة ياء مثل :

نم : نام ـ كل : كول ـ بع : بيع ٠

٩ ـ القصر :

وفيه يعمد العامي الى قصر الممدود ليخفف على نفسه مؤونة فتح فمه وليقصر من الزمن الذي يستغرقه اللفظ مثل :

صحراء : صحرا ـ سمراء : سمرا ـ حمراء : حمرا٠

١٠ ـ التضمين :

ويكون بتحميل فعل معنى فعل آخر مثل :

ساوى : عمل ـ راح : ذهب (لاي وقت) ٠

شاف : رأى وشاهد ٠

---

١ ـ هذه لفظة تركية مثلها مثل الكلمات الاخرى كبوياجي وغيرها

١١ ـ الدمج :

وذلك بدمج كلمتين خلال اللفظ مع تشديد الحرف الاول في الكلمة الثانية مثل :

كتبت له : كتبتله ـ قرأت له : قرأتله ٠

١٢ ـ التليين :

يجد العامة صعوبة في نطق الهمزة فيعمدون الى تليينها وابدالها بحرف علة مثل :

يأكل : ياكل ـ قائل : قايل ـ بئر : بير ـ مؤق : موق ٠

١٣ ـ التعويض :

ويكون بحذف حرف يعيق اللفظ وبتعويضه بآخر مثل :

نادى : نده ـ جاء : جه ٠

١٤ ـ تغيير الحركات :

وفي هذا يتصرف العامي كما يحلو له غير عابىء بأصول اللغة أو اشتقاقها وتصريفها مثل :

بغداد : بغداد ـ ضبع : ضبع ـ نمر : نمر ٠

١٥ ـ الاخلال بالاعراب :

لا يهتم العامة كثيرا بالمرفوع أو المنصوب أو المجرور وكذلك لا يأبه للافعال أو الاسماء الخمسة مثل :

جاء المعلمون :: اجوا المعلمين ٠

شاهدت أباك : شفت أبوك ٠

أطعمته رغيفا : طعميته رغيف ٠

١٦ ـ تصريف الجامد :

يتصرف العامي بالجامد فيشتق منه أفعالا وغير أفعال مثل :

خشب : خشب اللوز ـ نحاس : نحس جلده ٠

١٧ ـ التعريب :

عندما يجد العامة أن اللفظ العربي أثقل على اللسان من الاصل الاجنبي فانهم يهملون الفصيح مثل :

الخيال المرئي : سينما ٠

الشاطر والمشطور والكامخ بينهما : الساندويتش(١) كما وأنهم يستعملون اللفظ الاجنبي الذي ليس له ما يقابله في العربية مثل :

غرام ـ غاز ـ كيلو ـ طن ٠

وقد يجتمع أكثر من واحدة في كلمة مثل :

سقا الله تلك الايام : اصأ الله هديك الايام ٠

ففي فعل (سقا) فقط نجد أنه قد زيد فيه حرف الهمزة المكسورة وبدلت السين بالصاد مع تغير حركتها من الفتح الى السكون ورققت القاف ٠

ويمكننا أن نعمم ـ بحذر شديد ـ هذه الاساليب والوسائل التي استخرجناها من مجموعة اللهجات الشامية على بقية مجموعات اللهجات العربية التي لا بد وأنها قد سلكت هذه السبل والطرق في تحويرها للفصحى وفي استنباط مفرداتها وتعابيرها منها ، وان كان اختلاف بين المجموعات فهو حاصل من اجتماع بعض هذه الوسائل في كلمة أو تفردها فيها ٠

وأخيرا فان هذه الاساليب والطرق ليست ثابتة أو دائمة ، فقد يضعف بعضها ويندثر بعضها الاخر ، وهي في نقص مطرد دائم ، لا تزيد ولا يظهر فيها جديد ، ما دام ينتشر العلم وتعم المعرفة سائر صنوف الشعب ومختلف طبقاته ، الامر الذي يدفع بنا للتفاؤل بالمستقبل والتبشير بعهد جديد ـ ليس ببعيد ـ تنقرض فيه العامية وتسود الفصحى صفوف العامة بعد الخاصة ، وتصبح لغة المحادثات العادية والاعمال اليومية في جميع الاقطار العربية الممتدة من الخليج الى المحيط ٠

صبحي مارديني

---

١ ـ ليست هذه من الفصحى بشيء بل من وضع احد ظرفاء كتاب مصر وقد عزاها الى مجمع اللغة العربية في القاهرة الذي لم يضع سوى كلمة الشطيرة ترجمة لساندويش وأورد صاحب متن اللغة نقلا عن الصاغاني ـ المشطور ـ وأنه الخبز المطلي بالكامخ ـ التحرير ٠

ركود حركة النقد .. لماذا ؟ ..

عبد الرحمن شلش

من حين لآخر نطالع على صفحات صحفنا ومجلاتنا آراء وأحاديث تدور حول موضوع النقد الادبي أو ما يسمى بأزمة النقد ٠

ففي حديث لاديبنا الكبير نجيب محفوظ (نشر بالزهور ـ عدد أكتوبر ١٩٧٤) أجاب عن سؤال حول هذه الازمة بقوله : « للحقيقة توجد أزمة نقدية خانقة ، وأنا أتكلم بصفة خاصة عن مصر ٠٠ بل نستطيع أن نقول بأن الاديب اليوم يشق طريقه متجاهلا للنقد ومتجاهلا منه ٠٠ وشيء واضح الان أنك تجد حملة رهيبة ضد مسرحية أو فيلم وهو مكتسح النجاح ، وبالعكس تجد تمجيدا لشيء لا هو شيء في الحقيقة ٠٠ كيف وصل النقد الى هذه الحالة السيئة لا شك أن لدينا نقادا يملكون الموضوعية والامانة والنزاهة والتأهيل من أعلى طراز ، ولكنهم لا يجدون مناخا يحترم النقد ويقدره ٠٠ فيلوذون بالصمت ، وكان يجب أن لا تخلوا صحيفة أو مجلة من ركن للنقد تستكتب فيه كبار الاساتذة ٠٠ لقد وجد كثير من النقاد المنحرفين لشتى أسباب الانحراف ، وهؤلاء عصفوا بالثقة في النقد ، حتى أصبح ملاحظا الان بأن النقد لا يقرأ أو لا يكاد يقرأ من كثرة « المقالب » التي شربها القراء من هؤلاء الصنف من النقاد ٠٠ ولذلك فان خير ما كتب في النقد في الاونة الاخيرة هو النقد الاكاديمي الذي كتب عن عصور الادب السابقة »٠

وفي رأي للدكتورة سهير القلماوي (نشر بالملحق الادبي للاخبار القاهرية في ٢٠ سبتمبر ١٩٧٠) قالت حول ما يسمى بأزمة النقد : « ان الاساس في نظري ليس نقدا أو نقادا ، وانما هو حياة فكرية بأسرها يجب أن توضع في الميزان ٠ ان الحياة الفكرية كل لا يتجزأ فاذا كان النقد متخلفا ، فان الانتاج أيضا متخلف أو مكتوم وأن التأليف في شتى النواحي متخلف أو قاصر ، واذن هي حياة فكرية برمتها تحتاج الى دراسة واعية ميدانية ان صح هذا التعبير لنرى ما الذي جعلها تركد ٠ هل هي سنة الطبيعة ان بعد الفورات تأتي لحظات هدوء ؟ هل هي سنة التطور اذا كان من السليم أن نطبق سنن التطور على الحياة الفكرية بمعنى التطور البيولوجي أو العلمي لا التطور الفني » ٠

والواقع ان هناك كثيرا من الاراء التي تناولت موضوع النقد الادبي ، وكلها تجمع على أننا نعاني من أزمة نقد في حياتنا الادبية ٠

ولست أميل الى تسمية هذه الظاهرة بلفظ «الازمة» مثلما نقول أن هناك أزمة في المواصلات ، وأزمة في التموين،

النقد الادبي في وقتنا الحاضر ، وهذا الركود يرتبط بركود الابداع الادبي ·· بل وبركود حياتنا الفكرية ·

وفي تصوري أن ركود حركة النقد الادبي يرجع الى أسباب يمكن اجمال أهمها في النقاط التالية :

● ركود الحركة الادبية بشكل عام حيث تفتقد حياتنا ذلك الازدهار الذي كان قائما في العشرينات والثلاثينات من القرن الحالي ·

● قلة المنابر الصحفية التي تفسح الطريق أمام نشر النتاج الادبي والنقدي من شعر وقصة ورواية ومسرحية ودراسة ·

● اشتغال بعض النقاد بالعمل في مجالات أخرى مثل التدريس والصحافة ، وهجرة بعضهم الى الخارج ·

● تسلل فئة ممن يدعون بأنهم نقاد الى أجهزة الاعلام ، وقيام جهودهم ومحاولاتهم على الهجوم أو المجاملة مما شوه الوجه النقدي لحياتنا الادبية وأدى الى هبوط مستوى النقد·

● ندرة الدراسات الادبية والنقدية التي تعدها جامعاتنا العربية مشاركة ومواكبة منها للحركة الادبية المعاصرة ·

من هنا برزت ظاهرة ركود حركة النقد الادبي مصاحبة لظاهرة ركود الحركة الادبية ·

صحيح أن لدينا حركة أدبية تتمثل في ابداع الاجيال سواء في الشعر أو القصة القصيرة أو الرواية أو المسرحية، ولكن هذه الحركة الان أقل ازدهارا وأكثر ركودا عما كانت عليه في النصف الاول من هذا القرن ·

وصحيح أن لدينا الان حركة نقدية تواكب حركة الابداع الادبي ، ولكن هذه الحركة النقدية لا تتميز بالازدهار الذي كانت عليه حركة النقد الادبي في الزمن السابق ذكره ·

حقيقة ، ان الادب والنقد ، أو بمعنى آخر الابداع الادبي والابداع النقدي هما وجهان للحياة الادبية ، فحركة الادب ، وحركة النقد صنوان متلازمان ، ولا يمكن أن يكون هناك ابداع أدبي بلا نقد ، لانه بدون النقد لا يعرف معنى الابداع الادبي ، ولا يمكن للمتلقين أن يستمتعوا بالادب دون أن يكونوا في حاجة الى النقد ،فالنقد ليس عبثا لا جدوى منه ، بل انه ضرورة أدبية ، فهو يكشف مواطن الجمال الادبي ، ويرشد القارىء الى مواضع الجمال التي ليس في مقدوره الوصول اليها بمفرده ، كما أنه يبرز خصائص وعيوب الادباء ويقومهم ، والنقد العظيم يتعدى مرحلة الكشف عن الجمال أو القبح في النص الادبي ، الى الدعوة للادب الجيد والى التجديد والى الاضافة ·

حقيقة أخرى ، أن الناقد لا بد أن يكون موهوبا ، لان النقد ملكة ليست موجودة في كل الناس ، وليس صحيحا أن النقد مسألة ذوق ، والصحيح ان النقد عملية ابداع مساوية ومكملة لعملية الابداع الادبي ·

فالنقد تحليل دقيق للعمل الادبي ومحاولة انارته من الداخل ، وليس النقد اجتهادا ، ومعظم القراء يعتبرون دراسة الادب أمرا أجوف ، لان الادب في نظرهم يقصد للتمتع وليس للدراسة ·

ومركز النقد هو الادب ، وتعد أحكام النقد غير نهائية ، وبابه يظل مفتوحا ، فلا يغلق أبدا ، وبالتالي فان هناك صعوبة في تعريف حدود النقد ·

والمعايير النقدية لا تحيا الا بين جمهور مثقف ، وهذا الجمهور يعتبر عنصرا مطلوبا ، واذا وجد هذا الجمهور تمكن الناقد القدير من مخاطبة الضمير الادبي بموضوعية وجدية ·

ووظيفة النقد ينبغي أن تكون كما حددها الناقد المبدع ت·س· اليوت : « السعي المشترك نحو التقويم الصحيح » ·

حقا ·· ان النقد باعتباره حقلا متميزا من حقول المعرفة هو سعي مشترك نحو تقويم الادب على أسس موضوعية صحيحة كما أشار اليوت ·

واذا كان الادب يعد تجربة مستمرة موصولة العطاء من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل ، فان النقد كذلك يعد تجربة مواكبة للادب باستمرار ·

فالنظرة الموضوعية للادب تؤكد بأن ملكة الابداع الادبي تواكبها ملكة الابداع النقدي ·

الملكية الأدبية والفنية

د. سعيد احمد المهدي

اتفقت القوانين الوضعية على أن حق الملكية هو حق المالك في الانتفاع بما يملكه والتصرف فيه بطريقة لا تحرمها القوانين واللوائح . وهذا تعريف لحق الملكية يذكر خصائصها . وما دامت الملكية تتكون من حق التصرف والاستعمال والاستغلال فهي اذن مجموعة حقوق وتقسم القوانين الوضعية الحقوق الى عينية وشخصية .

ويهمنا هنا الحقوق الشخصية التي تكون الملكية الادبية والفنية والصناعية صورا من صورها . والحقوق العينية والشخصية حقوق مالية أو ذات قيمة مالية . وتتميز الحقوق الشخصية بأنها لا توجد الا في مواجهة شخص واحد معين أو أشخاص معينين على سبيل الحصر والتحديد .

ومن أمثلة الملكية الشخصية الديون والاوراق التجارية والاوراق المالة والالتزامات . وقد اصبحت الآن كثيرة بعد ثورة العلم ، وامتدت لتشمل الملكية الادبية والفنية والصناعية .

ولاهمية الملكية الادبية والفنية عقدت اتفاقيات دولية واقليمية وانشئت منظمة عالمية مقرها مدينة جنيف بسويسرا اطلق عليها المنظمة العالمية للملكية الفكرية .

والملكية الادبية والفنية والصناعية لا يدركها الحس لانها تتعلق بالافكار والآراء والمخترعات بمعنى انها نتاج الفكر الانساني .

واطلق على الحق المرتكز على الافكار والآراء من نتاج الآداب والعلوم والفنون الملكية الادبية والفنية .

واذا كان الحق قائما على المخترعات الحديثة سمي بالملكية الصناعية ويشتمل هذا على حق العلامات التجارية .

ان هذه الحقوق ترد على اشياء غير مادية وغير محسوسة ، وصدرت قوانين كثيرة في مختلف دول العالم تتعلق بالملكية الادبية والفنية والتجارية والصناعية ، مثلا القوانين المتعلقة بالعلامات والبيانات التجارية والمحال التجارية وبراءات الاختراع وحقوق التأليف والرسوم والنماذج الصناعية ، والاسماء التجارية ، والعلامات التجارية .

ان موضوع هذا المقال هو حقوق المؤلفين وهي ما اصطلح على تسميته بحقوق الملكية الادبية والفنية .

واصبحت هذه الحقوق جديرة بالحماية لانها حقوق مالية ومعنوية قيمة لا يسمح العبث بها .

ان كل مؤلف كتاب أو سفر أو شعر أو نثر أو كتاب علمي أو تاريخي الخ لا يود أن يستغل الناشرون والطابعون كتابه واسمه لجني مكاسب مالية لا يستفيد منها هو شخصيا ٠

ولم تكن هناك حماية لحقوق المؤلفين في الماضي ، فيمكن مثلا ترجمة ونشر فلسفة افلاطون واسطو طاليس وكونفوشيوس وشعر امرىء القيس وعمر بن ربيعه وابي الطيب المتنبي وكتب ابن خلدون وابن رشد وابن سينا والفارابي وكتاب الموطا والام والمسند ومختار الصحاح والعقد الفريد لابن عبد ربه دون أن يتعرض الناشر لاجراءات قانونية ٠

غير ان المؤلفين في العصور الحديثة قد حمت حقوقهم القانونية بخلاف المؤلفين في سالف الازمان ، وقد مرت على البشرية فترات طويلة كان نتاج الفكر البشري نهبا لغير المبتدعين وغنيمة لكل انسان لا تجد اية حماية من أي تشريع ٠

تطورات القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية

في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي تنبه بعض المؤلفين الى حقوقهم الفنية والادبية بعد الثورة الصناعية واهتزاز الانظمة الاجتماعية والسياسية ونقدها نقدا مريرا ٠ وقد برزت في تلك الحقبة قيمة الفرد واهميتة في المجتمع ٠ وقد لعبت الثورة الفرنسية دورا جبارا وهائلا في ابراز حقوق الانسان ووضعت مبادئها الاولى على اساس قدسية الفرد واهميته ٠ وقد نال حق المؤلف في خلال هذه الثورة قسطا كبيرا من الرعاية والعناية من جانب زعماء تلك الثورة وذلك يعود الى ان ذلك الحق صورة من صور شخصية الفرد ومظهر جلى من مظاهرها ٠

ولم تمر مدة طويلة بين اندلاع الثورة الفرنسية وصدور قانون حقوق المؤلف وحمايتها ، فقد سن أول قانون في هذا الشأن في ٣ يناير ١٧٩١ وتلته قوانين اخرى في ١٩ يوليو ١٧٩٢ و ٥ فبراير ١٨١٠ و ٨ ابريل ١٨٥٤ و ١٤ / ٧ / ١٨٦٦ ٠

وقد استلزمت الحياة في العصر الحاضر أن يمد نطاق هذه القوانين ارضاء للمؤلفين والفنانين وتلبية لاحتياجات العصر المتجددة أبدا ٠ واهتم القضاء بهذه الحقوق في الاحكام التي اصدرتها محاكمه ، كما ان المؤتمرات والاتفاقيات الدولية طورت مفهوم حماية المؤلف بهدف تنظيم حماية الحقوق في الميدان الدولي وكسب المزيد من الاحترام لها ومراعاتها وتطبيقها ٠

والبلاد العربية عريقة في العلوم والآداب والفنون منذ ظهور الاسلام حتى القرن الثاني عشر الميلادي ٠ غير ان حقوق الادباء والمؤلفين لم تنظمها قوانين او تحميها نسبة لان العلم لا وطن له ولانه خير من المال ولانه يحرس حامله ، اما صاحب المال فانه يحرس ماله ٠ والعلم حاكم والمال محكوم عليه والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق ٠ وكان أبو الاسود الدؤلي يقول بانه ليس شيء اعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك ٠

وقد ساعد عدم وجود قوانين الملكية الفنية والادبية في قديم الزمان على انتشار فلسفة الاغريق والرومان والصين والعرب والمصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين ٠

وقد تفلسف العرب القدماء على طريقة الاغارقة حتى استوت لهم فلسفة أصيلة وقلد الامريكيون أوروبا حتى نبغ فيهم الاصالة والقدرة من الفلاسفة والادباء ٠

وكانت الالحان الموسيقية التي ابتدعها الفنان العربي ابراهيم الموصلي والفنان زرياب في بغداد والاندلس ملكا للبشرية جمعاء بالضبط كما كانت اشعار العرب قبل الجاهلية وبعد الاسلام وادبهم واحاديثهم وكتبهم في الادب والعلوم والطبيعة والفلسفة والكيمياء والطب والشريعة الاسلامية ٠

ولما برزت في العصر الحديث اهمية الحقوق الادبية والفنية المالية أخذ موضوع حماية حقوق المؤلف قسطا كبيرا من عناية المؤتمرات الدولية وذلك بقصد تنظيم هذه الحماية في الميدان الدولي • ومن الاتفاقيات اتفاقية « برن » التي ابرمت في ١٨٨٦/٩/٩ بين العديد من الدول •

وانشأ بمقضى هذه المعاهدة اتحاد بين الدول الموقعة عليها للعمل على تحقيق الاغراض التي عقدت المعاهدة من اجلها ، كما انشىء مكتب دولي تابع لحكو مة سويسرا اطلق عليه اسم مكتب الاتحـاد الدولي لحماية المؤلفات الادبيـة والفنية • وكان آخر مؤتمر دولي لتعديل اتفاقية برن هو مؤتمر بروكسل الذي عقد في ١٩٤٨/٦/٢٦ •

الـدول العربيـــة وحقوق المؤلفـين

لا يزال المؤلفون في معظم الدول العربية محرومين من تشريع يحمي حقوقهم • وكانت هناك محاولات في مصر لحماية هذه الحقوق في القوانين المدنية والجنائية • فقد اشارت المادة ١٢ من المجموعة المدنية الملغاة الى حقوق المؤلف بقولها :

« يكون الحكم فيما يتعلق بحقوق المؤلف في ملكيـة مؤلفاته وحقوق الصانـع في ملكية مصنوعاته علـى حسب القانون المخصوص بذلك •

كما اشارت المادة ٨٦ من المجموعة المدنية الجديدة اليها بما يلي :

« الحقوق التي ترد علـى شيء غير مـادي تنظمهـا قوانين خاصة » •

وجاء قانون العقوبات المصري في المواد ٣٤٨ الى ٣٥١ بنصوص لحماية هـذا الحق عن طريـق فرض عقوبـات جنائية على من يتعدى عليه • ولكن هذه النصوص ظلت معطلة لعدم صدور التشريع الخاص الذي اشارت اليه •

وبالرغم مـن سكوت بعض القوانين العربيـة فيما يتعلق بحماية حقوق المؤلفين الا اننا نجد ان قواعد العدالة ومبادىء القانون الطبيعي تحميها •

مساهمة مصـر في حمايـة حقوق المؤلفـين

كانت مصر من اسبق الدول العربية في المساهمة في المؤتمرات الدولية الخاصة بحماية حقوق المؤلفين • وقد عقدت الجمعية الادبية والفنية الدولية احد مؤتمراتها في القاهرة في ديسمبر سنة ١٩٢٩ وعرضت على هذا المؤتمر مشروعا لقانون بحماية حقوق المؤلفين كانت قـد وضعته لجنة كونتها الحكومة المصرية لهذا الغرض واتمت وضعه في مارس ١٩٢٧ • وهذا المشروع كما يقول الاستاذ عبد المنعم البدراوي يأخذ بمعظم المبادىء التي قامت عليهـا اتفاقية برن ولكن المشروع لم يتخذ الخطوات التشريعية • وفي عام ١٩٥٠ تقدمت وزارة العدل الى البرلمان بمشروع قانون جديد لحماية حق المؤلف لكن هذا المشروع لم يتم خطواته التشريعية هو الآخر • وأخيرا أعدت وزارة العدل مشروع قانـون لحماية حـق المؤلف وارسلته الى مجلس الوزراء لاصداره وقد صدر هذا القانون بالفعل بالقانون رقم ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤ •

هـل يمكن تملك حـق المؤلف

استعمل كثير مـن رجـال القانـون العرب مصطلح الملكيـة الادبيـة والفنية نقـلا عـن المصطلح الافرنجي Intellectual Rroperty المعترف به عالميا في احكام القضاء والتشريعات ومبادىء القانون الطبيعي والعدالة • وتعرف هذه الملكية بحق المؤلف •

فاذا ألف كاتب كتابا ووقع في يد ناشر نشره بدون اذنه يستطيع المؤلف ان يستصدر أمرا من المحكمة بايقاف نشر الكتاب حماية لحقه • واذا كانت حقوق الطبع والنشر في كتاب معين محفوظ للمؤلف أو لدار الطبع والنشر أو لهما سويا لا يجوز قانونا لاي شخص أو دار نشر أن تتقول على

حقوق الطبع والنشر المحفوظة للدار أو للمؤلف ، فاذا تجرأت تلك الدار ونشرت الكتاب دون اذن المؤلف أو الدار التي احتفظت لنفسها بحقوق الطبع والنشر ، يمكن للمؤلف أو هذه الدار مقاضاة المعتدي لاخذ تعويض مادي منه ٠

وقد حمى كثير من الرسامين والملحنين والشعراء والمغنين حقوقهم الادبية والفنية بهذه الطريقة ، على اساس ان من ينتج شيئا يملك ما ينتجه ، فالمؤلف ينتج افكارا أو تصويرات فهو بالضرورة يملك هذه الافكار وتلك التصويرات ٠

وحقوق المؤلف هنا ليس حقوقا مادية محسوسة ولذا فان استعمال لفظة التملك أو الملكية هنا من قبيل المجاز ، فالاشياء المادية هي القابلة للتملك والحيازة ٠ اما الافكار والمعنويات فهي على النقيض من ذلك ٠ ومتى اذاع صاحب الافكار افكاره خرجت منه لتتردد على كل لسان اذا كانت ناجحة وناضجة واصيلة وذلك لان كثرة عدد الذين يعتنقون هذه الافكار ويدافعون عنها هو ما يرمى اليه المؤلف الذي لا يقصد أن تكون افكاره وآراؤه في حيز ضيق أو مقصورة عليه ٠ واذا خرجت الافكار من صاحبها وشاعت في المجتمع انتفى عنها حق ملكية المؤلف لها ٠ ولكن يمكن ان يقال ان حق المؤلف يمكنه من استغلاله واحتكاره ولو مؤقتا ٠

الجانب الأدبي والجانب المالي لحق المؤلف

يشتمل حق المؤلف الذي اطلق عليه رجال القانون الملكية الادبية والفنية على شقين : الشق الادبي أو المعنوي الذي يتمثل في حق المؤلف وافكاره ونتاج عقله ٠٠ والشق الآخر هو شق مالي يتمثل في حق المؤلف في استغلال هذا النتاج كما يقول الدكتور عبد المنعم البدراوي في كتابه عن شرح القانون المدني المصري ٠

وبمقتضى الحق الادبي البحت يكون المؤلف وحده ان يقرر متى تعتبر الفكرة صالحة للنشر ، ثم انها متى نشرت يجب ان تنسب دائما اليه ، كما يجب ان تبقى في الصورة التي أعرب عنها فيها دون تغيير ٠ وهذا الحق حق دائم وان تنازل المؤلف عن حقه المادي ، وهو يبقى قائما وان انتهى الحق المالي أي ولو أصبح المؤلف مالا شائعا مباحا للجميع ٠

وهذا الحق الادبي لا يدخل في حساب الذمة المالية ، فلا يجوز التصرف فيه ولا يجوز رهنه أو الحجز عليه ٠ ومثال ذلك ديوان شعر أو قصة أو أغنية ملحنة او لوحة مرسومة تنسب الى صاحبها الذي وضعها ٠ وقد ظلت بعض هذه الآثار تراثا انسانيا عظيما ٠٠ مثلا جمهورية افلاطون وشعر المتنبي وروايات شكسبير ولوحات رمبرانت وليونادرو وموسيقى بيتهوفن وباخ وشاكوفسكي ورسالة الغفران لابو العلاء المعري وكتاب السير الكبير للامام محمد الحسن الشيباني ٠ وقد عرف قدماء العرب هذا وفطنوا اليه في قول ابي الطيب المتنبي ٠

انام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

اما الحق المالي (المادي) فهو الذي يتمثل في امكان استغلال الفكرة ، وهذا الحق من الحقوق المالية التي تدخل في الذمة فيجوز التصرف فيه ورهنه والحجز عليه ٠

غير ان بعض الآراء تقول بان حق المؤلف واحد تغلب عليه الناحية الادبية ٠ فكثير من عظام الشعراء عاشوا فقراء لم يدر عليهم شعرهم أي رزق ومن أمثلة ذلك شاعر النيل حافظ ابراهيم ٠ ولم يظهر الادب كحرفة يتكسب منها الاديب الا في السنوات الاخيرة في العالم العربي ٠

غير ان هذا لا ينفي ان أدباء العالم الغربي قد اغتنى بعضهم من الادب نثرا وشعرا ومن أمثلة ذلك الكاتبة الراحلة اغاتا كريتي ومؤلف قصص جيمس بوند ، الكاتب ايان فلمنج وهمجنواى وجون بول سارتر والكاتب الروسي اللاجىء سولزا نيتس ، الذي الف كتاب جولاج أرشا بولاقو في العامين الماضيين ٠ وقد دخلت عالم الكتب القصص المثيرة التي نجحت نجاحا منقطع النظير فتسمى بعد ذلك ال

Best Seller كما ان الاغاني المسجلة في الاسطوانات استغلت استغلالا تجاريا بشعا وتظل بعض الاغاني لبعض المطربين لاسابيع عديدة كأحسن اغنية

وكل هذه الكتب والاغاني تشتمل على حقوق المؤلفين والملحنين والمطربين التي تحتاج الى حماية فعالة من استغلالها . ويتعرض من يستغلها دون اذن وبغير وجه حق للمقاضاة التي قد تنجم عن الحكم عليه بالتعويض وأمر منع استغلال المؤلفات حماية لحقوق اصحابها من تفول الآخرين .

مما سبق يتضح لنا ان حق المؤلف حق شخصي لا ينفصل عن ممتلكاته العقلية ويشكل امتدادا له . وما دام الامر كذلك فان للمؤلف ان يقرر نشر مؤلفه أو عدم نشره ، او أن يسحبه بعد نشره ، وله الحق في احترام المؤلف ونسبته اليه وعدم ادخال أي تغيير أو تعديل عليه الا بأذنه وذلك لان المؤلف انعكاس لشخصية صاحبه ولا يسمح في هذه الحالة للناشرين ان يعبثوا بالمؤلف جريا وراء الاستغلال التجاري .

ومن المقرر قانونا ان حقوق المؤلف تورث فتنتقل بعد الى ورثته وذلك بالقدر الذي تقبل به الانتقال . وفي هذا الشأن للورثة الحق في الاعتراض على أي تعديل يراد ادخاله على المؤلف .

حقوق المؤلف المالية

اصبحت تجارة الكتب والموسيقى والاغاني واللوحات والرسومات وسائر منتجات العقل البشري ظاهرة من ظواهر القرن العشرين . وقد احترف بعض الكتاب والمطربين والرسامين واصبح عيشهم وعيش من يعيلونهم يعتمد اساسا على انتاجهم الفكري . ومعنى هذا انه زيادة على السمعة الادبية والمعنوية للكاتب أو المغني أو الموسيقار أو الرسام الخ فانه يكسب بعض المال من انتاجه الفكري . وللمؤلف ان يستغل مؤلفاته في اية صورة من صور الاستغلال ، ويستطيع ان يمنع أي شخص من استغلال مؤلفاته دون اذنه . وهذا الاستغلال يتمثل في عرض المؤلف للجمهور بطريق مباشر أو غير مباشر ، فالنقل المباشر هو عرض المؤلف على الجمهور كالتلاوة العلنية أو التمثيل المسرحي أو التوقيع الموسيقي أو العرض العلني أو الاذاعة اللاسلكية للكلمات أو الصوت أو الصور ويسمى هذا الحق بحق الاداء العلني .

أما النقل غير المباشر فيكون عن طريق نسخ صور من المؤلف تكون في متناول الجمهور ، ويتم هذا عن طريق الطباعة او الرسم أو الحفر أو التصوير الفوتوغرافي أو الصب في قوالب أو عن طريق النشر الفوتوغرافي أو السينمائي .

ومن الحقوق المالية للمؤلف الحق في ترجمة مؤلفاته أو الاذن بترجمتها وكذلك حقه في تحويلها من لون من الوان الادب أو الفن الى لون آخر أو تلخيصها أو تحريرها ويستطيع ورثة المؤلف حماية جميع حقوقه .

مدة حماية الحقوق المالية للمؤلف

اذا اخرج مؤلف كتابا ونشره ثم مات يكون لورثته الحق في مباشرة حقوق الاستغلال المادي . ويجب ان نشير هنا الى ان بعض البلدان ومن بينها مصر قد جعلت حق الاستغلال المالي المقرر للمؤلف موقوتا ومحددا بأجل وهو طيلة حياة المؤلف وخمسون سنة بعد وفاته وهذا الاجل هو الذي انتهت اليه المعاهدات الدولية واخذت به اكثر الدول الاوروبية .

وقد وردت على حق المؤلف بعض القيود وبخاصة تلك التي يمليها الصالح العام من نتاج العقل البشري والفكر الانساني ، فلا يجوز ان تحول دون بلوغ هذه الغاية حقوق المؤلف ، وذلك يعود الى ان الاجيال المتعاقبة تساهم عادة بما تخلفه من اثار في تكوين المؤلفات .

وقد نصت القوانين في بعض البلدان على انتهاء الحماية المقررة للمؤلف ولمن ترجمت كتبه الى لغات اجنبية بالنسبة لحقهم في ترجمة الكتب الى اللغة العربية مثلا اذا مضت خمس سنوات من تاريخ أول نشر للكتاب الاصلي او المترجم دون أن يباشر المؤلف أو المترجم بنفسهما أو بواسطة غيرهما ترجمة المصنف الى اللغة العربية مثلا • وفي هذا القيد الزمني تغليب للمصلحة العامة على المصلحة الشخصية والفردية للمؤلف ، وحتى يمكن دفع هذا المؤلف وحثه على مباشرة هذه الترجمة في أقرب وقت معقول رعاية لمصالح البلاد وحتى لا تحرم البلاد من ثمار العقول في مختلف الامم الاخرى •

وقيدت القوانين حق المؤلف المالي بحيث جعلته لا يمتد الى تمثيل الروايات التي يكتبها في الاجتماعات العائلية أو الجمعيات أو المنتديات أو المدارس دون تعويض للمؤلف • وفي هذا الصدد يحق للفرق الموسيقية الحكومية ان تصدح بالانغام التي تخص الغير دون تعويض للمؤلف ما دامت لا تستفيد من ذلك ماديا •

اجراءات حماية حق المؤلف

اذا وقع اعتداء على حق المؤلف يجب ازالته وتعويض المؤلف عن جميع الاضرار التي سببها • وقد أقر بهذا الدكتور عبد المنعم البدراوي في شرحه للقانون المدني المصري وذكر بأن المحاكم تحكم بالتعويض للمؤلف الذي اعتدى على حقه ثم هي تأمر أيضا بمنع تجدد الاعتداء في المستقبل وكذلك بسحب الكتب التي عرضت في السوق واتلافها •

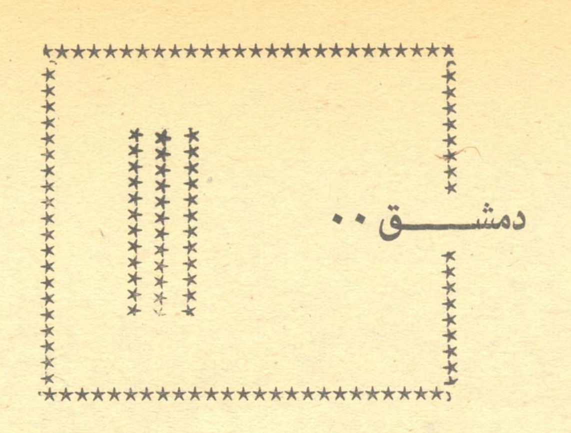
وورد في القانون الاجراءات التحفظية التي يجوز اتخاذها حفظا لحقوق المؤلف أو خلفه عند وقوع أي اعتداء على حقوقهم وهي :

- اجراء وصف تفصيلي للمؤلف الذي نشر أو أعيد نشره أو عرض بدون اذن كتابي من المؤلف أو خلفه •
- وقف نشر أو عرض أو صناعة المصنف •
- توقيع الحجز على الكتاب الاصلي (اذا كان موضوع الاعتداء كتابا) أو نسخة أو صورة وكذلك المواد التي تستعمل في اعادة النشر أو في استخراج نسخ منه بشرط ألا تكون هذه المواد صالحة الا لاعادة نشر الكتاب المعقود •
- وفي حالة الايقاع والتمثيل والالقاء أو العرض على الجمهور منع استمرار العرض القائم أو حظره مستقبلا •
- حصر الايراد الناتج من النشر أو العرض وتوقيع الحجز على هذا الايراد في جميع الاحوال •

وتوقع بعض القوانين عقوبات جنائية على من يعتدي على حق المؤلف وذلك باعتبار أن التعدي فعل مكون لجريمة التقليد ، وفي حالة العود والتعدي المستمر قد تقضي المحكمة بغلق المؤسسة التي استغلها المقلدون أو شركاؤهم في ارتكاب فعل لمدة معينة أو نهائيا •

الحماية الدولية للحقوق الادبية والفنية

ذكرنا فيما سبق أن منظمة دولية قد انشئت بجنيف أطلق عليها اسم المنظمة الدولية للملكية الفكرية • ومن ضمن اختصاصات هذه المنظمة العمل على توحيد قوانين البلدان فيما يتعلق بحماية الملكية الادبية والفنية والصناعية والتجارية سواء كانت البلدان من البلدان الصناعية الغنية أو بلدان العالم الثالث النامية • وقد تقوم هذه المؤسسة بصياغة الاتفاقات الثنائية والجماعية الشارعة وعرضها على مؤتمرات دولية لمناقشتها واقرارها وتوقيع المندوبين المفوضين عليها حسب نظمه الدستورية الداخلية وجعلها جزءا لا يتجزأ من قوانينه الداخلية •



دمشق ..

فيحاء قد رقص الخيال السمح للنغم المثير

ينساب من بين المجالي الفيح في أرج الزهور

فيحاء يا وكر الجمال اللذ والحب الطهور

الوحي أومأ في سمائك واستطار كفيض نور

فترنحت من فيضه المعطار أمواج الاثير

والشاعر الغريد يقبس من سناه المستطير

ألفاه في دل الحسان وفي ابتسامات الغدير

كم وقفة شهاء ، لي فوق السفائح والحدور

والغوطة الخضراء تنفح بالطيوب وبالعطور

سفر يلوح كمتحف للفن مخضل السطور

ورؤى تطوف بخاطر الصحراء تزخر بالعبير

فاذا بها دنيا من الجنات ، والفن النضير

هي مركض الحب الطروب وملعب الامل القرير

والغيد !! تخطر كالاماني البيض للروح الحسير !!

من كل لينة كطيف الحب ناعمة نفور ..

حور تأزرن الجمال العبقري وأي حور ؟!!

والشمس تخفق ، مثل أحلامي تلاشت في فتور

سفحت أشعتها المريضة فوق هامات القصور

ومضت ترانيم الاصيل تغور في دنيا ضميري

أصداؤه رفت موشاة بألوان العبير ...

بردى ، شجاه الادكار فلاذ بالدمع الغزير

مرت عليه الذكريات الغبر بالحلم المرير

اني لاسمع ندبه الباكي تهدج في الخرير

وأنا نظمت الدمع شعرا قد تقطر من شعوري

دمشق : ناجي مشوّح

الفن والطبيعة

محمد المقداد

للفن علاقة كبيرة بالطبيعة · فقد نشأ وترعرع في أحضانها · وكان تاريخ الفن الطويل تعبيرا واضحا عن هذا الارتباط · الى أن كان الفكر المعاصر بحاجاته الجديدة وطموحاته التي لم تعد الطبيعة في قالبها المحدود والمنظور بقادرة على اعطائه كل شيء ·

فاذا ذكرنا فن الموسيقى وجدناه يعتمد على توليد الاصوات بواسطة الالات · وهذه الالات مصنوعة بفضل التفكير الانساني الذي اهتدى الى ذلك مع تطوره ، وتطويره للموسيقى ، صنعها من المواد الطبيعية الاولية كالمعادن والاخشاب وبعض أجزاء من الحيوان،واذا ما حللنا ما يعنيه هذا لوجدنا أن في الطبيعة أصواتا ولكنها غير منتظمة ، فوضوية ، بحيث يؤدي بعض منها ، وهو قليل الى شعور الانسان بالطرب ، كصوت بعض الطيور الحسنة ، كخرير المياه ، وحفيف أوراق الاشجار · ولكن بالمقابل ، تكون معظم أصوا تالطبيعة مزعجة للمرء ، كصوت الحمير « ان أنكر الاصوات لصوت الحمير » ، وعواء الكلاب ، وصوت تنقيط الماء ، وغيرها ·· ، وبعضها محزن أو يوحي بالحزن كصوت البكاء ، وصوت سقوط المطر ، وتلاطم أمواج البحر على صخور الشاطىء ·· وبعضها يكون مزعجا مخيفا كأصوات الانفجارات في الحرب ، وأزيز الرصاص ، وزئير الاسد ، وصوت الرعد المجلجل ، والصاعقة المنقضة ··· ، وبالمقابل لكل هذه الاصوات يمكن أن نذكر أن السكون الدائم ، والهدوء القائم ، يكون مدعاة الى السأم والملل وانحلال العزيمة ·

فهل يعجب مثل هذا الوضع المرء ، مع أصوات الطبيعة بهذه الصورة ؟ هل يكتفي بها دون أن يتحكم هو فيما يلائمه منها ، في وقت ، وما يلائمه في وقت آخر ، مع تقلب عواطفه المستمر ؟

بالطبع لا يستطيع الانسان ، بعد أن امتلك زمام التفكير من بين سائر الحيوان ، أن يترك للطبيعة زمام المبادرة · فما الحل اذن ؟ انه ـ كما وجده الانسان ـ

اختراع آلات وأدوات نفخية وايقاعية ووترية .. تصدر بالعزف عليها أصواتا جميلة تطرب في الوقت الذي يشاء . فاستعمل عناصر الطبيعة وموادها لهذا الامر . ولولا هذه العناصر لما توصل الى أن ينظم أصوات الطبيعة ويسيطر على الجزء الذي يريد أن يولده هو منها . وقد تطورت هذه الات من أشدها بدائية في أقدم العصور مع تقدم الفكر الى أعقد الات في الشرق والغرب . كما أن الانسان تفنن في اصدار الالحان ..

كانت أول خطوة قام بها الانسان اذن ، هي تطوير أصوات الطبيعة الجميلة ، وايجاد أصوات أخرى لا يمكن أن تكون موجودة في الطبيعة . وهكذا استطاع أن يمتلك هذه الاصوات الجميلة العفوية ، وأن يزيد منها بعد تنظيمها ، عددا آخر من الاصوات ، التي تلعب دورا عاطفيا وحسيا في نفسه . فأصدر بنفسه وباستعمال الالات أصواتا مطربة ، وأصواتا سارة ، وأخرى مضحكة ، وأصواتا محزنة وأصواتا مخيفة .وهذا ما نطلق عليه عبارة سيطرة الانسان على أصوات الطبيعة بعقله . وتوليدها وتطويرها ، ومن اللحظة الاولى التي تم بها ذلك بدأت الموسيقى بالتقدم والاتساع .

اذن قلد الانسان في البداية أصوات الطبيعة ، ولكنه تجاوز هذه الاصوات لانها محدودة وأغناها بما يراه وما يعجبه عن طريق آلاته . تماما كما تجاوز الانسان وسائل النقل البدائية التي قلد بها الطبيعة الى هذه الوسائل الجبارة في الجو والبحر . ترعرعت الموسيقى في أحضان الطبيعة ثم انفصلت عنها لتتطور في استقلال تام ، كما حدث في العلوم عندما ترعرعت طويلا في أحضان الفلسفة أو الحكمة ثم انفصلت عنها لتعتمد على وسائلها الخاصة التي أوجدتها لنفسها .

وأما في الافاق الاخرى للفنون . فنستطيع أن نقول بأن اللغة الانسانية ، هي بحد ذاتها ، فن . وفن جميل بلا شك . فلقد استطاع الانسان أن ينظم الاصوات الي يصدرها جهاز النطق عنده بعفوية نتيجة احتكاك الهواء الصاعد من الرئتين بمختلف أجزاء الطريق التي يسلكها ، فاستغل تنوع هذه الاصوات ليشكل من كل طائفة منها لفظا ، وليستخدم هذه الالفاظ المضبوطة في مصالحه وأغراضه الحيوية مع جماعته البشرية ، أو مجتمعه الضيق الذي يعيش فيه مع الاخرين من أشباهه . فنظم الاصوات العفوية في وحدات متميزة هي الالفاظ ، التي ما لبثت أن حملت كل منها دلالة ومعنى على أشياء حسية ، وعندما صارت لغة الانسان غنية ، في مجتمع من المجتمعات ، بهذه الالفاظ ذات الدلالات ـ الكلمات .. قام بالانتقال الى مرحلة أسمى هي مرحلة التعبير بهذه الاصوات عن أمور معنوية ، وبدأ عنده عصر التعبير عن العواطف .

وبما أن اللغة قائمة على الاصوات ، فهي قريبة جدا من الموسيقى .

واننا نستطيع أن نكتشف ميل الانسان في لغته نحو الموسيقى ، وانجذابه اليها باحصاء هذه المباني والصيغ اللغوية التي تشبه القوالب التي تصب بها الاصوات على نحو معين في كل مرة : فالصيغ العربية (فاعل ، مفعال ، أفعل ، فعلان ، فعيل ... الخ) يمكن املاؤها بالاصوات على نحو جديد في كل مرة ، مثل ـ فاعل ـ تحمل الاصوات التالية ذات الجرس الموسيقي الواحد (شارب ، عامل، كاتب، قادم ، عاقل ، سائل ، نازل .. الخ) والصيغة ـ مفعال ـ يمكن املاؤها بالاصوات التالية (مقدام ، مفتاح ،مجداف، معطاء .. الخ) ، ويمكن ملء الصيغة ـ أفعل ـ بما يلي (أخضر ، أصفر ، أجمل ، أسمر ، أكبر ...) وهكذا .

وان توالي نوع واحد من المباني والصيغ السابقة في عدد معين ، يولد ايقاعات منتظمة جميلة لها جرس موسيقي واضح ، فلنستمع لقراءة عالية لتكرر واحدة من هذه الصيغ

مثـــل : سائل ، سائل ، سائل ، سائل • أو الصيغة : جميل جميل ، جميل ، جميل • وهذا مثال بسيط لهذه الموسيقى التي يمكن أن تولد في نفس الانسان البدائي شعورا حسيا جميلا • وقبل أن ننتقل الى مرحلة تالية ، ألا نلاحـــظ تكرار صيغة (فاعل : سائل) أربع مرات انما هو بحر من بحور الشعر العربي اسمه ـ المتدارك ـ ، وكان قليـــل الاستعمال في القديم ، واليوم نجد شاعرا مثل نزار قباني قد توسع فيه وقصر تقريبا ديوانا كاملا باســـم « قصائد متوحشة » عليه ، كمثل قوله :

اني خيرتك فاختاري ما بين الموت على صدري

أو فوق دفاتر أشعاري لا توجد منطقة وسطى

ما بين الجنة والنار (١)

أو مثل قوله :

ان كنت أعز عليك فخذ بيدي

فأنا مفتون من رأسي حتى قدمي (٢)

كما نلاحظ أن دالية الحصري ، التي عارضها أحمد شوقي ، هي من هذا البحر ومطلعها عند الحصري :

يا ليل ، الصب متى غده أقيام الساعة موعده (٣)

وأما المثال الثاني ، تكرار (فعولن : جميل) أربع مرات فانه يذكرنا بالبحر المتقارب كقول الشابي التونسي :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولا أريد أن أحول هذه الدراسة الى بحث في الشعر • ويكفي أن أقول أنه من خلال ما سبق نستنبط أن الشـــعر هو التعبير الصوتي الاقرب للموسيقى ، ولذلك فقد ارتبط منذ تعرف الانسان عليه بفطرته وعفويته ، ثم بعد ذلك عن وعي منه ، ارتبط بالغناء ، وفي العربية يدلنا اســـتعمال « أنشد قصيدة » على معنى الشعر في البوادي العربية • ثم جاءت فترة كان يلقي الشعر فيها بدون آلة معتمدا علـــى موسيقاه الخاصة، الاوزان والايقاعات التي تتألف من حركات وسكنات والتي تضفي عليها القافية لونا سحريا من الجرس الموسيقي المؤثر في السامعين ، ثم ان الشعر العربي كـــان صالحا للغناء به ملحنا مصحوبا بآلات كثيرة كالعود ، وكتاب الاغاني الذي يتحدث لنا عن ذلك أكبر دليل ، كما أن هذا الشعر أيضا يغنى به في العصر الحاضر بمصاحبـــة آلات عديدة • ولذلك نرى بعض القصائد المذكورة مغناة (١) •

ومن منا يتذوق الموشحات الاندلسية قراءة ؟ اننا لا نتذوقها الا ملحنة مغناة ، فروح الموشح هو اللحن • وهناك ما يدعوني الى العودة الى اللغة ، والعربية بالذات لتفسير أصواتها • فأنا أرى أن بيئة الصحراء الهادئة الساكنة قد أعطت للعربي في البادية صفاء جعله يهتم بلغته ويصقلها لتكون مقاطعها موسيقية واضحة كل الوضـــوح ، اذ كانت أصوات اللغة هي موسيقاه ، وهي وحدها التي تشق السكون الصحراوي المطبق • من هنا جاءت المقاطع الواضـــحة في لغتنا ، وهذه الجزالة التي نلحظها عند قراءة نص عربي ، قديم على وجه الخصوص ، فطبيعة الحياة وسكون الاجواء دعت الى قوة اللغة هذه وجزالتها ووضوح أصواتها ولكننا نجد الحواضر العربية لغويا ، فيما بعد ، أكثر رقة ونعومة، وهذا ما لاحظه المتقدمون من رقة وعذوبة جرس لهجـــة قريش العربية على سائر لهجات البادية آنذاك ، وهذا ما يفسر لنا أيضا رقة اللغة وعذوبتها في العواصم أكثر من الاطراف ، فلهجة أهل باريس تتميز بهذه الرقة والعذوبة على ألسن الباريسيين لا يتميز بها أهل الجنوب مثلا •• وهكذا • كما أن أصوات اللغة في البوادي أكثر محافظة على خصائصها ، وخصائص الجملة عامة ، من الحواضر والمدن•

ونظرية « المحاكاة » التي جاء بها أرسطو في حديثـــه من الشعر التمثيلي اليوناني في كتابه ـ فن الشعر ـ توحي لنا بسيادة الطبيعة على الفن ، وجعلها المعلم الاكبر الذي يتلقى عنده الفنان دروسه وتعاليمه الجماليـــة ويتعلم كيف يعمل ويؤلف ويشخص •

---

١ ـ نزار قباني ، ديوان قصائد متوحشة ، القصيدة الاولى •

٢ ـ المصدر السابق ، قصيدة : رسالة من تحت الماء •

٣ ـ د• ابراهيم انيس ، موسيقى الشعر ص ١٠٤ •

١ ـ المصدر السابق ص ١٤ •

ونحن نعلم أن السيمفونيات المشهورة ما هي الا محاكاة لاصوات الطبيعة بما يسر النفس أو أنها تصويرات لبطولات الابطال وأعمالهم المجيدة ٠ ويتبين لنا ذلك من هذه الاصوات المرتفعة والهابطة ، المسرعة والمبطئة الخ ٠٠ وان هذه السميفونيات التي خلفها لنا بيتهوفن وموتزارت وشوبان لتسمو بالمرء في أجواء وخيالات تدخل اللذة والسرور في قلب المرء ، وتوسع الافاق من حوله ، وما الخيال الا هذا التوسع الذي يشعر فيه المرء بالسعادة ٠ فلا يجد نفسه يعيش في أفق ضيق ونطاق محدود ٠

وقبل أن أمضي في الموضوع قدما ، أحب أن أربط بين فن السيمفونية في الموسيقى ، وفن الشعر الحديث ، فأقول ان السيمفونية تعبير متماوج متفاوت النغمات عما يريده المؤلف الموسيقي من معان تشبه في خصبها ، وفي تنوعها خصب الطبيعة والحياة وتنوعها ٠ والشعر الحديث بموسيقاه ومعانيه يحاول أن يكون بهذا الخصب وهذا التنوع ، فهو متماوج في موسيقاه ، يسكن ويندفع ، يصطخب ويرتفع ٠٠ ثم ينساب كالجدول الهادىء بين الحقول ٠٠ وهذه الخاصية التي يتصف بها الشعر الحديث من بعض ما أعطته اياه « التفعيلة » المتفاوتة العدد في كل سطر شعري ، وقد ساعد على ذلك التحلل من القافية الشعرية في نهاية كل سطر ، أو التزامها قليلا والتنويع فيها ٠ اذن فهناك هذه الصفة المتشابهة ما بين السيمفونية والشعر الحديث عندنا ٠ ولنستمع الى مقطع من قصيدة لاحد المحدثين «خالد محيي الدين البرادعي» يقول في المقطع الثالث الذي يحمل عنوان « البراءة » :

كل الفراشات تعيش عاريه
والزهرة لا تكون الا عاريه
ودمعة الطفل تولد في بسمته
مصقولة وعارية
ولحظات الموت والميلاد
تأتي وتمضي عاريه
وأنت يا سيدتي
تخبئين الكون في أهابك الجميل
وتحملين ألق الفصول
ولحظات الموت والميلاد والرحيل
ولا أراك عاريه (١)

واذا انتقلنا الى الفنون الاخرى ، عند الانسان ، فاننا سنجد ارتباطا وثيقا بين الفن والطبيعة ، فالنحت مثلا ، كان ، منذ العصور القديمة ، يميل الى تجسيد الشخصيات الانسانية ، والالهة والحيوانات ،ونادرا ما نجد تمثالا يمثل نوعا من النبات ٠ ولا شك أن كل ما لدينا من تماثيل اليوم ، تدلنا على نقل ومحاكاة للطبيعة من نحو ، ومن نحو آخر نجد بعضها هو ارتفاع عن الطبيعة ، وتجاوز لها ، وارتباط بالقوى التي تسمو عنها كالالهة ، وأحيانا نراها تجسد أساطير لا حقيقة لها ، وهذه تطلعات نحو أجواء أوسع من أجواء الطبيعة ٠ كما أن المثالين القدماء حاولوا أن يعطوا تماثيلهم أسمى المعاني ،وأن يضفوا عليها المثل الاعلى الذي يريدون تجسيده ، فتمثال أفروديت ، آلهة الجمال ، يمثل أقصى ما تصوروه من مزايا جمالية للمرأة ٠

ولا ننسى أن مادة النحت الاولى هي من مواد الطبيعة التي استغلها الانسان لاشباع ميوله الفنية والروحية ٠

وأما فن التصوير ، فانه أيضا ، منذ بداياته لجأ الى تصوير بعض المشاهد من الطبيعة الجميلة من حوله ، ثم انه أخذ يحاول ادخال نفسه في تصويره ، فصار يرسم نفسه وانتقل بعد ذلك الى رسم المواقع والمشاهد القومية والوطنية وربما رسم أمورا أسطورية متخيلة ٠ وعلى أية حال ، فان هذا الانسان ، كان يستغل ألوان الطبيعة في سبيل غاياته الفنية ، فكان يقلد حين يرسم هذه الطبيعة ، ويعطي كل شيء لونه المقابل في الطبيعة ، الى أن أتيح له أن يثور على هذه الطبيعة ، وأن يدخل مدارس فنية جديدة في التصوير، تقوم على أسس معينة ، ليست الطبيعة على أية حال واحدا منها ٠ فانتقلت الالوان لاخذ معاني جديدة ، وأمكنة جديدة ، وتنظيمات تختلف عن واقعها القديم في الطبيعة ،

---

١ ــ المعرفة ، عدد نيسان ١٩٧٥ ، ص ١١٧ ٠

كما أن الشكل لم يلتزم بحقائق أبعاد الطبيعة أيضا وبتناسبها ٠

وقد يكون الارتفاع عن الطبيعة وعن تقليدها ، والثورة عليها ، والسمو عنها ، كان في أساسه قائما على الاعتقاد بأن هذه الطبيعة محدودة لا يمكنها أن تعطي الفن أبعادا لا حدود لها ، انها محدودة من جميع جوانبها ولا بد أن يصل الفن معها ، وبالتالي فنه الى طريق مسدود ، أو حالة افلاس ٠ والفن عدو لهذا المصير السيء ، انه منطلق حر خالد ، يأبى الحدود والقواعد ، والقوانين الكلاسيكية ،ولتجنب العقم فقد جعل يفك قيوده وارتباطاته بهذه الطبيعة المحدودة ٠ ومثل هذا حدث في كثير من جوانب الفكر الانساني ٠

وربما زاد هذا الاتجاه حدة واندفاعا ، اعتقاد آخر بأن تقليد الطبيعة المحدودة هذه لاجمل ما فيها يظل صورة ممسوخة عنها لا يمكن أن تبلغ في الجمال ما في الطبيعة من جميع الوجوه ٠ فمن يقول أن الوردة البيضاء العبقة الجميلة الغضة النامية المتمايلة مع كل هبة نسيم ، يمكن أن تكون هي نفسها ما يرسمه الفنان لها من شكل ؟ نعم ، ان الفنان لم ينقل سوى الشكل ، وقد انعدمت بهذا الفعل أشياء كثيرة (الحركة ، النماء ، الرائحة الطيبة ٠٠) اذن ، لماذا يبقى الانسان مغرورا بمثل هذا التصوير الناقص للطبيعة ٠ لا بد أنه تصوير تافه ، لا يجوز الايمان به ٠ ولا بد أن مرحلة النقل هذه مهما حاول الفنان تزويق ما ينقله واضفاء الجمال عليه ، قد أصبحت مرحلة قديمة بالية لا بد من تجاوزها ٠

وأنا أخشى أن يفعل هذان الاعتقادان فعلا تدميريا في الفنون السابقة ، عندما يرميانها بالعقم والجمود ، ثم لا يجد الفن الجديد آفاقا جديدة ينطلق اليها ٠

ولنتذكر أن بيغماليون قد استطاع ـ في الاسطورة ـ أن ينحت تمثالا لامرأة جميلة في غاية الجمال ، ولكن حبه الجارف لها لم يكن منطقيا كامرأة ، الا عندما تحولت ، بعد التوسل الى الالهة ، الى امرأة حقيقية ذات روح وحركة ودفء ٠

وعلى هذا ، فان قول بيكاسو : « ليس من علاقة بين الفن والطبيعة (١) هو بداية طيبة للفنون في العصر الحديث ٠ ويؤيد مالرو هذا الاتجاه بقوله : « ان ما ندعيه بأن قوام الفن هو الطبيعة ، هو محض ادعاء باطل »(٢) ٠

وهكذا نجد أن الفن قد ابتعد عن الطبيعة التي ترعرع في أحضانها ، نتيجة لتطور فكر الفنان ومعطياته الذوقية ، ولكنه حافظ على استغلال مواد الطبيعة الاولية في فنه ٠ وأخذ يخلف فنا ايحائيا ، مجردا لا علاقة له بالطبيعة ٠ ومن هذا المنطلق ينبغي لنا أن نتذوق الفنون الحديثة بشكلها الجديد ٠ فلم يعد الفنان اليوم ، الفنان الحقيقي ، هو الذي يقوم بدور المرآة أو المصورة (الكاميرا)، وانما الذي يضفي على فنه أبعادا نفسية وفكرية ايحائية واسعة ٠

ولقد انقسمت كلمة فن الى : فن ابداعي (حقيقي)، وفن صناعي (تجميلي للصناعات ، ولبعض جوانب الحياة العملية) (٣) ٠ ولا بد أن نفهم الفن الحديث على أنه تعبير عن موقف للفنان ينبع من أصالة فنية ٠ فبيكاسو يرسم الشكل الخارجي كما يراه هو انطلاقا من موقفه ، كما أنه يعطي الاشياء ألوانا ليست لها في الواقع امعانا في اظهار هذا الموقف٠ وهكذا أضيفت أمور واقعية على أمور غير واقعية، وانطلق الفنان في عالم بعيد عن الواقع ٠

والاتجاه الجديد في الفن يرى الاستيحاء من المستقبل عن طريق الخيال لانه هو وحده الذي يعطي الفن الصحيح(٤) ، وبذلك ابتعد عن الواقع ، والواقع الطبيعي

---

١ ـ انظر الفن والثورة ، د٠ بهنسي ، ص ١٣ ٠
٢ ـ المصدر السابق ص ١٤ ٠
٣ ـ الفن والثورة ص ١٤ ٠
٤ ـ المصدر نفسه ص ١٥ ـ ١٦ ٠

فلم تعد صورة الطبيعة الجميلة كافية لاشباع نهم الفنان • ولكن قد تأتي فترة يعود فيها الى الطبيعة لاستلهام موضوعات جديدة تعالج بطرق جديدة دون أن يعود بالفن الى منابعه أو مراتعه الاولى في أحضان الطبيعة ، عن طريق المحاكاة والتقليد والنقل •

وان تقليد الطبيعة بمحاكاة ما فيها ، كما قلت هو مسخ لها ، فلو رسمنا صورة سيارة كأجمل ما تكون فهل يكون هذا العمل واقعيا ؟ بالطبع لا • انه مسخ للواقع ، فالسيارة ، في الواقع يمكن الاستفادة منها بالركوب فيها والتنقل ، وهذه فائدة عملية • أما الصورة فانها لا تفيد بشيء من هذا • اذن لا خير في هذا النوع من الفن الذي يعطي الطبيعة برودا قاتما • وهذا العمل تقييد للطبيعة في لحظ ما ، بينما وظيفة الفن هي الانتقال والتجاوز لامور ثلاثة : المألوف ، والطبيعة والزمن (١) • وان التقدم الحضاري والتوسع في مجال الرقي ، انما يقوم على هذا الفن الطموح ، الذي يبغي تغيير العالم ، وقلب واقعه المأساوي ربما للوصول الى الفردوس الارضي الذي يصنعه الانسان قبل الوصول الى الفردوس السماوي الذي تعده العناية الالهية للناجين •

يقول غارودي : « ان خلق الاسطورة عمل انساني أصيل هدفه تجاوز الطبيعة » (٢) • ويضيف « ومهمة الفن الاصلية هي خلق الاسطورة » (٣) • اذن ، فالاسطورة التي هي خروج عن الطبيعة هي وحدها الفن الاصيل الذي يخدم تجاوز هذه الطبيعة وتغيير العالم القائم الى ما هو أفضل •

وكل هذا ، أو هذه الثورة الفنية التي ربما كان قائدها في العصر الحديث بيكاسو ، كانت تستهدف خلق مقاييس جمالية جديدة ، نوع جديد من الاحكام على العمل الفني • واذا عدنا من ذلك الى بعض المواقف الفنية في تراثنا وبالذات الى أبي حيان التوحيدي الذي يمثل اتجاهات عصره الفكرية ، والفنية ، في القرن الرابع ، ويمكننا الاستشهاد به على هذا العصر • فاننا سوف نجد حديثا لا بأس به عن الفن والطبيعة •

فنظرة أبي حيان الى الفن هي أنه يحاول محاكاة الطبيعة ، التي هي فوقه بمنشئها الالهي ، وعلى ذلك فان عمل الفن هو نسخ ما يراه في هذه الطبيعة لانه دون الطبيعة ، وذلك لان الفن بشرى وأن الطبيعة تشمل على قوة الهية •

وهو يذهب بعد ذلك الى أن الطبيعة تحتاج الى الفن لصقلها وتهذيبها ، وذلك لان الفن يأخذ من النفس التي هي فوق الطبيعة فتحولها وتحورها بما يلائمها ويعجبها • وكان هذا رأي نقله عن واحد من الجماعة المرافقة لابي سليمان المنطقي أستاذه ، حين سمع غلاما يغني بصوت مطرب حلو • ويتوسع أبو سليمان في هذا الموضوع فيقول في المقابسات ١٩٢ ص ١٦٣ ـ ١٦٤ : «ان الطبيعة انما احتاجت الصناعة في هذا المكان ، لان الصناعة ، هنا ، تستملي من النفس والعقل ، وتملي على الطبيعة • وقد صح أن الطبيعة مرتبتها دون النفس ، تقبل آثارها ، وتتمثل أمرها ، وتكمل بكمالها • وتعمل على استعمالها • وتكتب باملائها ، وترسم بالقائها • والموسيقى حاصل للنفس ، موجود فيها نوع لطيف وصنف شريف • فالموسيقار اذا صادف طبيعة قابلة ، ومادة مستجيبة ، وقريحة مواتية ، وآلة منقادة ، أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبوسا مؤنقا ، وتأليفا معجبا ، وأعطاها صورة معشوقة حلية مرموقة ، وقوته في ذلك تكون بمواصلة النفس الناطقة ، فمن هنا احتاجت الطبيعة الى الصناعة ، لانها وصلت الى كمالها من ناحية النفس الناطقة بواسطة الصناعة الحادثة التي من شأنها

---

١ ـ المصدر نفسه ص ١٧ •

٢ ـ الفن والثورة ص ١٨ •

٣ ـ المصدر نفسه •

استملاءها ما ليس لها ، واملاء ما يحصل فيها ، استكمالا بما تأخذ وكمالا لما تعطي » (١) .

ويتضح لنا هنا أن أبا سليمان ، يريد أن يقول أن النفس والعقل هما اللذان يعطيان أو يضفيان على الطبيعة مزيدا من البهاء والجمال ، وهما يزيدانها بهجة وعذوبة ، فأصوات الطبيعة لا يمكن أن تطرب كما هي ،ولكن استغلال هذه الاصوات بصنع آلة كالعود ، والضرب عليها ، بعد صقل وموهبة (هي قوة النفس) تجعل اللحن يخرج أصواتا مطربة تحرك في السامعين النشوة والسعادة .

ان فالطبيعة مادة خام ، والفن يصنعها لتلائم ذوق ومتطلبات الانسان الفنان ، وهذه نظرة صائبة في هذا الامر .

ونقرأ لابي حيان في الامتاع ج٢ ص ٣٩ قوله : « وأبين ما سمعته في هذا الحديث ، ان الطبيعة فوق الصناعة ، وان الصناعة دون الطبيعة ، وان الصناعة تتشبه بالطبيعة ولا تكمل ، والطبيعة لا تتشبه بالصناعة وتكمل. وأن الطبيعة قوة الهية سارية في الاشياء ، واصلة اليها ، عاملة فيها بقدر ما للاشياء من القبول ، والاستحالة والانفعال والمواتاة ، اما على التمام ، واما على النقصان » (٢) .

وربما كان أبو حيان يعني في هذا الحديث أن الفن ناقص بنفسه ، ويطلب كماله في تقليد الطبيعة ، و«التشبه بها » . بينما تكون الطبيعة مستغنية عن الفن لكمالها بذاتها ، ويعلل ذلك باعتبارها قوة الهية .

ويقول في نفس المصدر : « الصناعة بشرية مستخرجة من الطبيعة التي هي الهية ، ولا سبيل لقوة بشرية أن تنال قوة الهية بالمساواة ، فأما بالتشبيه والتقريب والتلبيس ، فيمكن أن يكون بالصناعة شيء كأنه ذهب أو فضة ، وليس هو في الحقيقة لا ذهب ولا فضة » (٣) .

وفي هذا القول ادانة صارمة لتقليد الطبيعة ، لان الفن عندما يصبح مزيفا ، موهما ، بعيدا عن الابداع والاصالة اللازمين له . فالتقليد ليس سوى مسخ أو نقل ممسوخ للموضوع الطبيعي . وعليه فان نظرة أبي حيان هنا ، قد تلتقي بثورة بيكاسو على الحركة الفنية قبله ، بما تقوم عليه من أسس مشابهة ، فهل نعتبر أبا حيان في هذا أول ناقد فني نبه الى هذه الناحية ؟

ان نظريته لا شك صائبة ، اذا ما تبينا وجهة نظر المدارس الفنية الحديثة التي ظهرت الى الوجود بعد انقلاب المفاهيم الفنية القديمة التي تحاول تقليد الطبيعة في فنها .

ولنا هنا أن ندرس طبيعة الفن العربي واتجاهاته ، وتخليه عن الموضوع الطبيعي المنقول ، للاهتمام بما هو أكثر رمزا وروحانية وايحائية . أعنى اتجاهه الى الاشكال الهندسية ، والمنمنمات ، والرقوش اللينة في ما نشاهده على الاثار الاسلامية الباقية ، وربما كان الاهتمام بالخط واتخاذه زينة وفنا في ذاته ما يؤيد هذه النظرية ، والا فأين التماثيل وأين التصوير الذي خلفه لنا القدماء ؟ هل كانوا قاصرين فيذلك أم أن طبيعتهم الروحانية ،رفعتهم الى درجة أسمى ، وأرقى من تقليد الطبيعة ؟(٤) .

والواقع أن المذاهب الفنية التي عاش عليها الفن الغربي المقلد للطبيعة وصل في النهاية برغم كل المحاولات الى طريق مسدودة ، أدت الى هذه الطفرة الهائلة فيالاتجاهات

١ ـ انظر المقابسات ١٩٢ ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .
٢ ـ انظر الامتاع والمؤانسة ٢ : ٣٩ .

٣ ـ نفس المصدر ٢ : ٣٩ .
٤ ـ انظر الفن والعمارة د. بهنسي ص ٣١٥ ـ ٣١٦ وانظر ايضا ص ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ وانظر ما يتعلق بجمالية الخط العربي الفصل الثاني من دراسات نظرية في الفن العربي د. بهنسي.

الفنية الجديدة في أوروبا بينما كان الفن العربي مؤهلا ، وما زال للسير في طريق الثورة الفنية الجديدة ،والتطور في مجالها ، دون أن يكون في ذلك خروج عن أصالته ، لانه ورث ذلك منذ البدايات الاولى للحضارات في بلاد الرافدين . وقد استفادت الحضارتان الاغريقية والرومانية من فنونه خلال امتداد امبراطوريتهما الى المنطقة (١) ، وقد استمر ذلك في العصر الاسلامي ، ويتجلى في فن العمارة كذلك ، وهو مستمر الى العصر الحديث .

وأنا أرى أن الفن الحديث أخذ يتجه الى تصوير الحياة الاجتماعية وقضاياها العادلة المشروعة ، بينما كان الفن القديم ، في كثير من الاحيان ، واقفا على الحياد ، لا يتدخل في شأن الانسان وقضايا معاناته المصيرية . ولهذا فان أمام هذا الفن اليوم آفاقا واسعة يمكنه أن يسلكها ، وأن يقدم فيها ، وأن يبدع ، وكلنا أمل في أن ينتقل الفن العربي الى توطيد جذوره الفنية والاستمرار فيما سار عليه الفن عند القدماء مع تطوير وتوسيع لآفاق ومفاهيم ما سار عليه .

وهكذا تتم مشاركة الفن العربي حقا في تجاوز الطبيعة وواقعها الى المستقبل الافضل ، وشيئا فشيئا يمكن للوعي الفني عند العرب أن يرتفع الى درجة عالية ،فيتكون الذوق الذي يعتبر البيئة الاولى لتطور الفن في المجتمع ، اذ لا يمكن للفنان ان يحيا في فراغ أو برج عاجي ، كما أن الانصراف عن الشعر يؤدي الى ضموره وضعفه ، ويجعله هزيلا ، وكما أن الانصراف عن المسرح يجعله عقيما . والانصراف عن البضاعة يجعلها كاسدة لا قيمة لها،وتتوقف عند حد معين ، تماما كالماء الراكد في مستنقع مغلق ، فان الفن ينمو ويترعرع ويتطور في ظل الاهتمام الاجتماعي وذوقه العام ، ويموت عند الانصراف عنه .

١ ــ المصدر نفسه ص ٢٠٦ ــ ٢١٢ وانظر ص ١٦٤ .

والفن وحدة لا تتجزأ ، مترابط مع بعضه البعض ، فلا يحدث التقدم الفني في مجتمع من المجتمعات الا دفعة واحدة في جميع الفنون والاتجاهات ، ولا تتوقف سيرته الا معا أيضا . وهذا ما يلاحظ اليوم من تفتح بعض العبقريات والمواهب والاتجاهات الفنية في كل مجال ، في المجتمع العربي عامة .

وقد مر أن الفن العربي مؤهل للتطور المستمر بسبب الخصائص والاسس الروحانية التي قام عليها ، ويظهر لنا م. ج . مورينو أن من أوضح سمات الفن العربي « وفاءه للتطور . وتلك ثمرة التماسك الاجتماعي ، ففي الفن العربي لا يتلاشى شيء ما ، بل يتطور في اتجاه صعودي أو نزولي . وقد يدخل في مجال الزخرفة أشكالا كانت في جوهرها انشائية »(١) .

ويتهم مورينو الفن الاوروبي بأنه سريع الوثوب من « أسلوب الى آخر كما لو كان متنكرا لنفسه على مر العصور ، فهو متمرد ثائر ، معبر عن التطور الذاتي »(٢) . بينما الفن العربي المستوحى من طبيعته الروحانية الشرقية المتأصلة منذ الحضارات الاولى في الرافدين فانه فن متتابع مستمر (٣) .

ونحن نعجب من هذا الفن العربي الذي كان ثائرا على الطبيعة ، وكان مدركا أن لا علاقة بين الطبيعة والفن من قبل بيكاسو سوى مئات السنين ، وهذا ما اعترف به مورينو نفسه اذ يقول عن العرب في الاندلس : « ونبذوا كل زينة مستوحاة من الطبيعة » (٤) .

١ ــ الفن الاسلامي : مورينو ، ترجمة الدكتورين عبد المطيع سالم ص ١٣ .

٢ ــ نفس المصدر ص ١٣ .

٣ ــ نفس المصدر ص ١٢ .

٤ ــ المصدر السابق ص ١٥ .

ولقد كان الفن العربي ، كم سبق القول ، يعتمد على الزخارف والرقوش ، والخط ، والاشكال الهندسية في التعبير عن ذاته • « على أن الخط أيضا وهو أقرب الى الجانب الانساني ينحو في الفن الاسلامي نحو الطبيعة حيث يظهر في شكل براعات هندسية بين زخارف التوريقات كما لو أريد التعبير عن أشكال لا عن أفكار »(٢) •

ولم يكن الفن العربي يميل الى رسم الكائنات الحية في التصوير والنحت ،وقد كان يتصرف وفقا لاتجاهه الخاص أمام الحياة • مع : « ايثاره طريقة التصوير التوضيحي وتوخيه انسجام النشاط الطبيعي المتجلي فيشكل موضوعات نباتية على أساس هندسي ، بحيث يؤلف زخرفة التوريقات، ويثير عن طريق التشابكات والتعقيدات مشكلات في الهندسة المجردة ، وتجريدات للحقيقة ، حتى لقد تبلغ أقصى حد تحتمله الطاقة البصرية مع سحر لوني يهبها الحياة » (٣) •

وحتى الموضوعات الزخرفية النباتية هذه كانت محورة عن حقيقتها الشكلية ، وكان الفن العربي دائما يحاول أن ينتزع الحياة منها ، « بحيث يجردها من معنى الحرية التي تمجد الطبيعة بها الحياة » (٤) •

وهكذا اتخذ الفن العربي طابعه الخاص المميز ، فأعطانا ما أعطى من فن العمارة وما اتصل بها من الفنون سواء في القصور أم المساجد أم بعض المرافق العامة • ونحن نرجو أن تعود عظمة الماضي عن طريق الابداع المتطور الجاد في هذا العصر •

واذا كنا نسير ببطء في هذه الفترة ، نحو تحقيق ذلك فلا بد أن نصل الى الهدف المقصود ، وأن عظمة أمتنا العربية سوف تتجلى بما تقدمه من فنون يعترف بها العالم كله ، بحيث تعبر هذه الفنون عن عمق الاصالة التي يتصف بها العرب في حضاراتهم القديمة ، وفي حضاراتهم الناشئة حديثا ، والقائمة على أسس انسانية فاضلة تقصد الخير لشعوب الارض كلها • وهل ينمو الفن ويترعرع الا في ظل القيم الانسانية الباقية الخالدة • وهل يستطيع أن يبدع بعيدا عن هذه الاجواء الانسانية التي تقدم له التربة الخصبة للنماء ؟! •

٢ ـ نفس المصدر ص ١٣ •

٣ و ٤ ـ نفس المصدر ص ١٢ •



المراجع

١ ـ الفن والثورة • د• عفيف بهنسي •

٢ ـ دراسات نظرية في الفن العربي • د• عفيف بهنسي

٣ ـ تاريخ الفن والعمارة • د• عفيف بهنسي •

٤ ـ موسيقى الشعر • د• ابراهيم أنيس •

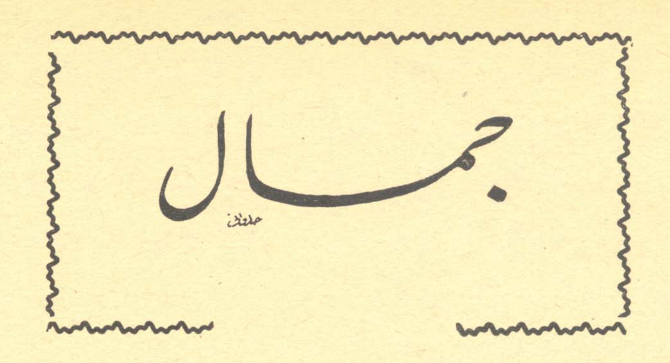
٥ ـ الامتاع والمؤانسة • أبو حيان التوحيدي •

٦ ـ المقابسات • أبو حيان التوحيدي •

٧ ـ مجلة المعرفة (عدد نيسان ١٩٧٥) •

٨ ـ قصائد متوحشة • نزار قباني •

٩ ـ الفن الاسلامي في اسبانيا • م• ج • مورينو •



جمال

انور الجندي

يا خصرها المخمور ، ما أجمله — لو أنه يبدي لنا مخمله

تمنت الاحلام اشعاعه — وود طيب الورد أن ينهله

الربوة الخضراء هامت به — مشدوهة ، والمنحنى دلله

والسوسن والمعسول لم يسله — وكيف يسلو طائر جددله ؟

يا فاتن الجفنين هذا الهوى — طاغ ، فقل لي – ما الذي أشعله ؟

اذا رأته العين مرتاحة — عادت ، وفي أجفانها بلبله

تغلغل الحب بأدواحها — مستسلماً ، سبحان من غلغله

وأمست الدينا وأفراحها — ثمالة في كوبها ، مهمله

يا فاتني .. ذاب افترار الدجى — وأقبل الصبح .. وما أعجله

وهومت ألحان شحروره — فأيقظت نغماتها بلبله

وصفقت آماله للقا — وأقسمت عيناك أن تعذله

قتلة بالزهو يا فاتني — فهل من الاشفاق أن تقتله ؟

لا تسأل المحزون عن سهده — فمن جنون الحب أن تسأله

أحللت عيناك حهجرانه ؟ — يا قاتل الرحمن من حلله !!

ما ضر هذا الثغر لو أنه — في سكرة محمومة قبله ؟

يا وردة شعشاعة ، غمغمت — فأنعشت همساتها مأمله

ما راعه الا احتمال الهوى — فقل لهذا الليل أن يحمله

سلمية : أنور الجندي

الجلاء في الشعر السوري

عيسى فتوح

« يوم أغر مشهر سيظل أنشودة في فم الزمان ، وبسمة في ثغر الصباح · يوم ألهم الشعراء والخطباء بجوامع الكلم ، ونيران القوافي ، فخلبوا الألباب ، وفتنوا العقول بأهازيج النصر وترانيم الظفر ، ينشدونها تحية لسورية التي نالت الحرية والاستقلال » ·

« فرحة فاضت بها الجوانح ، فانبثقت على أطراف الألسنة وجوانب الأحداق ، وتعالى صداها فغمر أجواء الفضاء ، وتخلخل في التراب ، فاهتز الأبطال في مضاجعهم ، وسرت في الأضرحة واللحود رنة النبأ العظيم ، فاختلج كل رفات والتمع ثراك يا سورية ، مشعا ببسمات العبقرية تطلع من خلل التراب ··· » ·

« مهرجان ولا كالمهرجان ، مهرجان الحق تألقت أنواره في مدائن سورية ، وانبسطت أشعته الى بلاد العرب جمعاء ، فانهزمت دونه دياجي الاتراح ، وبدت سورية في ذلك اليوم منارة عالية ترسل شعاعها الجوال الى العيون والقلوب في قصي البقاع ودانيها ، فتخضل المآقي بدموع الفرح ، تتلألأ في غمرة الضياع ، وتخفق الأفئدة مغمورة بسنا النعيم ··· » ·

لو رحنا نجمع ما قيل في الجلاء من قصائد منذ عام ١٩٤٦ حتى اليوم ، لألف ديوانا ضخما · ذلك لأن الشعراء الذين عاصروا هذا الحادث الجلل في تاريخ سورية ، بعد أن عانوا من الاستعمار كل ألوان الأذى وصنوف القهر ، لم يستطيعوا أن يكتموا هذه الفرحة العظيمة في قلوبهم ، فعبروا عنها بأشعارهم المنظومة على الطريقة التقليدية ، لأن موجة التجديد لم تكن قد سرت بعد في جسم الشعر العربي ·

لم تقتصر فرحة الجلاء على الشعراء المقيمين في الوطن الأم ، ممن رزحوا تحت نير الاستعمار الفرنسي واكتووا بناره فحسب ، بل وصلت الى المهجر ، ولا سيما المهجر الجنوبي ، الذي كان يرتبط ارتباطا وثيق الصلة بأحداث الأمة العربية بعامة ، وأحداث سورية بخاصة ، في طليعتهم الشاعر القروي ، والياس فرحات ، وجورج صيدح ، ونصر سمعان ، وزكي قنصل · أما في الوطن فقد ساهم الشعراء

مساهمة فعالة في صنع هذا اليوم الأغر في جبين سورية ، فقصائدهم قبل الجلاء كانت حربا لا هوادة فيها على المستعمر الغاشم ، من هؤلاء : بدوي الجبل ، وبدر الدين الحامد ، وسليم الزركلي ، وخليل مردم بك ، أنور العطار ، وشفيق جبري ، وعمر أبو ريشة واحمد الجندي ، عبد الرحيم الحصني .

لقد وقف الشعر الحماسي جنبا الى جنب مع الثوار في غوطة دمشق ، وجبل العرب ، وجبل الزاوية ، وجبال اللاذقية يلهب النفوس الظامئة الى الحرية ، ويحرك الهمم المتطلعة الى الاستقلال والتخلص من نير العبودية والاستغلال والقهر ... وهكذا فلم يتوان الشعراء عن القيام بدورهم الطليعي في قيادة الجماهير التي هبت كالمارد الجبار تطالب بالجلاء عن سورية ، بعد أن جثم على صدرها أكثر من ربع قرن ، وهي تتجرع كؤوس العذاب ، دون ان تكون هناك بارقة من أمل النصر ، كما يقول شاعر حماه بدر الدين الحامد :

ست وعشرون مرت كلما فرغت
جام من اليأس صرفا أترعت جام

ولذلك لم يكد يطوي الاستعمار خيامه على عجل ، حتى دوى صوته هادرا بفرحة الجلاء :

يوم الجلاء هو الدنيا وزهوتها
لنا ابتهاج وللباغين ارغام

ولا ينسى أن يشير في قصيدته الى يوسف العظمة ، شهيد معركة ميسلون ـ وأي قصيدة في الجلاء يمكن أن تغفل ضريح ميسلون ـ هذا البطل الذي حمل روحه على راحته ، وألقى بها في مهاوى الردى ، خرج ليقاتل المغيرين المدججين بأسلحة استعراضية خفيفة :

يا راقدا في روابي ميسلون أفق
جلت فرنسا ، وما في الدار هضام
لقد ثارنا وألقينا السواد وان
مرت على الليث أيام وأعوام

ثم تستبد به نشوة الظفر والانتصار ، فيثني على بطولة سورية ، التي كانت قبورا للفاتحين منذ الأزل ، لم تطأطيء راسها لغاصب ولم تحن هامتها لمعتد :

هذي الديار قبور الفاتحين فلا
يغررك ما فتكوا فيها وما ضاموا
مهد الكرامة عين الله تكلؤها
كم في ثراها انطوى ناس وأقوام

ان تراب سورية يغص بجثث الشهداء الذين صرعهم البغي على مر القرون ، ويمتليء في الوقت نفسه بأشلاء الغاصبين الذين ارتد كيدهم الى نحورهم ، ونالوا القصاص جزاء ما اقترفت أيديهم :

لو تنطق الأرض قالت انني جدث
فيّ الميامين آساد الحمى ناموا

- ٢ -

أما بدوي الجبل ، هذا الشاعر العملاق الذي حمل راية الكفاح ، وتنكر تحت اسمه المستعار ليتفادى صولة المستعمرين ويتقي شرورهم ، بعد أن ملأت قصائده الوطنية الرنانة صفحات الجرائد العربية ، فلم يهن ، ولم يلن ، بل كان شعره حربا على الفرنسيين طوال ربع قرن ، لا يفتأ يثير عليهم حمية الشام ونقمتها فهي :

عربية الانساب تطرب للوغى
في جاهليتها وفي اسلامها
فاذا أراد زمامها ذو قوة
شمست على الباغي بفضل زمامها
عطفت عليه بالسيوف كأنها
من حزمها صيغت ومن اقدامها
السمر حول قبابها مركوزة
والبيض لامعة بظل خيامها
ولقد أراد بها القوى تحكما
فتنمرت أبدا على حكامها

فما ان قطفت سورية ثمرة الجلاء ، بعد تعب طويل وصراع مرير ، حتى راح يصف ذلك اليوم المحجل في جبينها قائلا :

انتزعنا الملك من غاصبه
وكتبنا بالدم الغمر الجلاء

ثم يبين ما كان للنساء السوريات من دور فعال في

صنع الجلاء ، فقد وقفن صفا واحدا الى جانب المقاتلين في كل مكان ، يطلقن الزغاريد كلما استشهد بطل ، ويثرن الحماسة في قلوب الثوار :

كلما جندل منا بطل
زغردت في زحمة الهول النساء
كلما نادين فتيان الحمى
كبر الفتيان وارتد النداء

أما يوم الجلاء الذي صنعه الثوار بفضل صمودهم ، فجدير ان يكتبه الله على وجه الشمس دلالة على أهميته ومكانته في النفوس :

حق يوم الشام أن تكتبه
قدرة الله على وجه ذكاء

لقد صاغ البدوي أبياته بديباجة أين منها ديباجة البحتري ، وببلاغة مترفة رائعة ، وأناقة لا تدانيها أناقة كما في قوله :

همس الفردوس هل من نبأ
عن ربا الغوطة معسول الرجاء
نحن للغوطة في الجلى فدى
ولهذا الكحل في العين فداء

- ٣ -

وهذا هو الشاعر سليم الزركلي صاحب ديوان « دنيا على الشام » يغني للجلاء من على منبر المدرج الكبير في الجامعة السورية ، يوم ١٧ نيسان عام ١٩٤٦ ، حيث احتفلت سورية بأول عيد لها ، وأرسلت الدول العربية الشقيقة وفودا رسمية لتشارك في الاحتفال فيقول :

اليوم عيدك يا دمشق فهللي
وتفتحي عن عالم محسان
عيد بأفراح الجلاء وصنوه
بتناصر الاخوان والأقران
أبت العروبة أن تنام على الأذى
أو تنطوي في اليأس والنسيان

ثم يقف وقفة لا بد منا عند قبر من سفح دمه الزكي في ميسلون ، وبذل روحه رخيصة ، فيطلب السقيا لقبره ، ويعده كعبة المخلصين والاوفياء :

يا قبر يوسف لا عدتك مواطر
هن الرجاء لموطن ظمآن
يا قبر يوسف لست قبرا قائما
ما أنت الا كعبة الخلصان

ويتغنى بعد هذا بدمشق التي كانت ولم تزل معقل الأحرار ، ويصف كيف خفقت أعلامها ، وعزت بعد ذل ، وطربت بعد سنوات من الحزن العميق ، وراحت تبني حياتها من جديد ، وتنهض من كبوتها قوية شامخة جبارة :

أمعاقل الأحرار طاب لك الجنى
وحلا لك التغريد في الأفنان
خفقت بك الرايات ، يا لخفوقها
من بعد طول أسى وطول هوان
الراية الكبرى ترفرف ، والعلا
تبني معاهدها بكل مكان

ولا يكتفي بهذا القدر ، بل يمعن في التغني ببطولتها ، ومكانتها التاريخية ، وكيف قطعت قيود الذل غير عابئة بها ، وكيف تخطت الشدائد رافعة الرأس ، فكتبت أروع ملاحم البطولة بالحديد والنار ، وهذه غوطتها التي استعادت فتنتها وسحرها شاهد على ذلك :

أدمشق ما أنت الغداة بثاكل
ما أنت بالنادي الخضيب العاني
ما أنت بالبلد المضيع حقه
ما أنت بالوطن القليل الشأن
كم وثبة لك في القيود تقطعت
أسبابها ودم تسرّب قان
لكم أفقت على الشدائد والأذى
وسبحت في البلوى وفي الأحزان
رضت الجهاد فما استكان لعاصب
ولقد خططت ملاحم الفرسان
اليوم تبتعث الحياة فتية
في غوطتيك وساحر الارنان

ويحفزها أخيرا على هدم ما بلي ورث ، لتعيد صنعه من جديد ، ويشجعها على ان تثب وثبتها الجريئة غير هيابة ، لأن الدهر لا يقف الى جانب الخامل والضعيف :

فتجردي من كل قيد مقعد
تحفزي للهدم والبنيان
وثبي مع الاقدار لا تتهيبي
فالدهر ليس لخامل مذعان
وحذار ان تنسي مواكب للعلا
لفت مع الأمجاد في الأكفان

قلت ان جميع الشعراء الذين تغنوا بالجلاء جنحوا في قصائدهم الى ذكر حادثتين اثنتين في تاريخ سورية الحديث ، ألا وهما استشهاد يوسف العظمة ، وضرب دمشق بالمدافع عام ١٩٤٥ ، الا أن شاعرية سليم الزركلي الفياضة أبت عليه أن يجمع في قصيدة واحدة بين ثلاث حادثات تشكل انعطافا كبيرا في تاريخ سورية القومي ، لذلك أفرد لضرب دمشق قصيدة طويلة ، تعد من عيون ما قاله في هذا المجال ، وهي بعنوان « ذكرى العدوان » قدمها بما يلي :

« في اليوم التاسع والعشرين من أيار عام ١٩٤٥ طاش سهم السلطات الفرنسية، وانبرت تقصف دمشق بوابل من نيران مدافعها ورشاشاتها دون وعي ، وقد شعرت أن أوان انفلات سورية من ربقة الانتداب قد حان ، وراحت تضرب ذات اليمين وذات الشمال ، فوقعت ضحايا ، وهدمت مبان ، وحرقت دور ، وكان في جملة ما استهدف للنيران مبنى المجلس النيابي ومن فيه من جنود الدرك ، فكانت هذه الحماقة الدامية العمياء ، سببا كافيا ليقظة الضمير العالمي ، وتدخل هيئة الأمم المتحدة ، وكان الجلاء ... » والقصيدة في أربعة وأربعين بيتا ، وعلى قافية واحدة ، كقصائده كلها ، استهلها بقوله :

كفكفي بالدمع يا بنات الهديل
وامسحي بالدماء جفن الأصيل
نشر الغدر في دمشق رواقا
يبعث الرعب ما له من مثيل
وهوى يحصد النفوس الأبيات
ويزهى بالهدم والتقتيل

ان من يقرأ هذه القصيدة ، لا بد ان يذكر قصيدة ابن الرومي في خراب البصرة على أيدي الزنج ، رغم الفارق الكبير بين معالم دمشق الحضارية ومعالم البصرة ، فاسمعه يقول :

صور تترك المدامع حيرى
بين مستعبر وبين همول
والردى مشرع أسنته الحمر
مغذ في الطعن والتمثيل
يفرش الأرض بالدماء ليلهو
فوق أشلاء مثخن وقتيل
حلف البغي أن ينكل بالشام
م ويجري دماءها كالسيول

وهو اذ ينكر الضحايا في هذه النكبة النكباء ، لايراها أجساما محطمة ، أو أشلاء مبعثرة منثورة هنا وهناك ، بل أقمارا سطعت لتنير الدروب أمام الأجيال المقبلة لتعرف كيف تنتقم وكيف تثأر من جلاديها :

يا ضحايا وما أجل الضحايا
في جهاد على البقاء طويل
أطلعتكم دنيا الشهادة أقمارا
تنير الدروب بعد أفول
فاستضاءت بكم عيون ليال
كم أطافت على العلا بالدليل
الدم الحر لا يقيم على الضيـ
م وكم أجج اللظى في السهول

وينتهي الى خطاب سورية بلهجة المرشد الناصح ، أن تحشد قواها ، وألا تستسلم الى الضعف والتخاذل ، لأن ذلك لا يقيلها من عثرتها ، ولا الى اليأس والرضى بالمطمح القريب المنال ، بل ان تنسى جراحاتها الدامية ، لتتخطى تلال الشوك التي سدت عليها الطريق :

يا بلادي وما ألوتك نصحا
لا تسيري مع الهوى وتميلي
حشدي فالحشود عز روابيـ
ـك وجدي فما الونى بمقيل
كم خطوب وأدت بين ضلوع
من لهيب ، ومهجة من نصول

وشهيد دفنت بين جفون
ونجيع ما كان بالمطلول
الجراحات ما تزال تندى
والكرامات ما ونت عن ذحول

الى أن يقول :

ضلة الرأى أن يراودنا اليأ
س ، ونرضى من العلا بالقليل
انما المجد أن يطاوعك الدهر
وتزهى بعسكر وخيول

أما قصيدته « رموز قاسيون » التي قالها في احدى مناسبات الجلاء عام ١٩٤٧ ، فأكتفى متها بهذه الأبيات القليلة ، مشيرا الى أن الشاعر سليم الزركلي قد أعطى دمشق وميسلون وقاسيون والجلاء أكثر مما أعطى أي شاعر آخر ، فديوانه « دنيا على الشام » زاخر بالقصائد التي استوحاها منها :

فجر نيسان ضاحك
بالأضاحي منضد
صور في جفونه
رائعات تجرد
ذكريات مريرة
ليس تبلى تردد

ويختم قصيدته الطويلة بقوله :

يا ربى الخلد طاعة
قاسيون يخلد
للتعالي جهادنا
والمواضي تحدد
وعلى دوحة العلا
فالجلاء المؤيد

وحسبي أن ألمح الى رائعته « هذا الجلاء » التي ألقاها في ١٧ نيسان عام ١٩٦٦ في رابطة الحقوقيين بدمشق ، لأقف عند هذه الأبيات الجملية :

اني لأذكر ، والذكرى مقدسة
يوما بأفراحه الأعياد تختال
يوم جلا فيه عن دنيا النعيم أذى
شد الرحيل ، فما يعييه ارقال
جلا عن الدار ، والخيرات تطمعه
وود لو لم يكن بين وترحال
جلا وكان ضنى ، فاستبشرت أمم
ضاقت مذاهبها ، وانجاب بلبال

- ٤ -

وما دمنا في معرض الحديث عن سليم الزركلي - مد الله في عمره - فلنذكر ابن عمه المرحوم خير الدين ، الذي لم يقصر هو الآخر في بث لواعجه ، ونشر أشجانه يوم ضربت دمشق بمدافع الفرنسيين ، فثارت ثائرته ، واستشاط غضبه ، وكانت قصيدته ، أو قل صيحته التي تفتت الأكباد ، وتقطع القلوب ، ومن منا لم يحفظ هذه الدرة التي بنيت عليها ، قبل سواها ، شهرة خير الدين الزركلي كشاعر وطني بلا منازع ، فاسمعه يستهلها بقوله :

الأهل أهلي والديار دياري
وشعار وادي النيربين شعاري
ما كان من ألم بجلق نازل
واری الزناد فزنده بي وار
ان الدم المهراق في جنباتها
لدمي ، وان شفارها لشفاري

ثم يصف ألسنة اللهب المتصاعدة ، وقد دراحت تلتهم الأخضر واليابس ، والذعر الذي انتاب الأطفال في أحضان أمهاتهم ، والشيوخ الذين استهدفهم الفرنسيون ، دون أن يرحموا شيخوختهم وضعفهم ، وهم بريئون من كل ذنب :

النار محدقة بجلق بعدما
تركت حماة على شفير هار
تنساب في الأحياء مسرعة الخطى
تأتي على الأطمار والأعمار
والقوم منغمسون في حمأتها
فتكا بكل مبرأ صبار
الطفل في يد أمه عرض الأذى
يرمى وليس بخائض لغمار

والشيخ متكئا على عكازه
يرمى وما للشيخ من أوزار

أما الذين بقوا في دمشق ، وهي على هذه الحال ، فكيف يقر لهم قرار ؟ انهم ينتظرون الموت بين لحظة وأخرى ، ولا سيما أن دخان الحرائق قد جعل الليل نهاراً ، فلا يستطيعون التمييز بينهما ، ناهيك عن القذائف التي تنصب عليهم كالوابل المدرار :

صبرت دمشق على النكال لياليا
حرم الرقاد بها على الأشفار
لهفي على المتخلفين برحبها
كيف القرار ولات حين قرار
يترقبون الموت في غدواتهم
واذا نجوا فالموت في الأسحار
لا يعلمون أفي سواد دجنة
هم سهد أم في بياض نهار

ويحلل سبب غضب الفرنسيين على دمشق ، فلا يجد له مبررا سوى طبيعة الاستعمار الشرسة ورفض دمشق الذل الذي أرادوه لها ، ولهذا دكوا معالمها الحضارية دكا ، حتى جعلوها أطلالا كتدمر أو نينوي :

ما دمروك هم ولكن دمروا
ما كان فيك لهم من استعمار
حملوا عليك مواثبين وما لهم
ثار ، وثرت وأنت ربة ثار
ما ينقمون عليك الا أنهم
شهدوك غير مقودة لصغار
فاذا المنازل ، وهي شامخة الذرا
منهار أطلال على منهار
واذا المدينة تدمر أو نينوي
أنقاض عمران ورسم دمار

ويبارك أولئك الذين اشتروا ديارهم بدمارهم ، والذين رفضوا حياة الشاء في يد الجزار ، فثاروا هائجين :

المشترون ديارهم بدمارهم
وهم يرون به رباح الشاري
أنفوا حياة الشاء كل عشية
وضحى تعيث بها يد الجزار

ثم يسخر من الفرنسيين الذين لاذوا بأذيال الفرار ، فاختبؤا خلف الاسوار ، وستروا فرارهم بضرب الامنين من الاطفال والمرضعات :

طارت بألباب الفرنجة صيحة
في الشام فاندفعوا الى الاسوار
واستهدفوا الاطفال في حجراتها
والمطفلات وهن في الاخدار
ستروا بضرب الامنين فرارهم
فاعجب لعار ستروه بعار

لا شك في أن هذه القصيدة كانت صرخة جهاد ، وصيحة ثأر ، ودستور ثورة ، زادت النار ضراما ، وأذكت لهيبها ٠٠ حتى كان الجلاء ٠

ـ ٥ ـ

أما الشاعر خليل مردم بك فقد رثى يوسف العظمة في قصيدتين : الاولى « ذكرى يوسف » ، نظمها في نيسان عام ١٩٢٥ ، والثانية « يوم ميسلون » في تموز عام ١٩٣٠ ، ولم أعثر في وطنياته على قصيدة في الجلاء ٠ يقول في الاولى :

أعكف على جدث في عدوة الوادي
بميسلون سقاه الرائح الغادي
وطأطيء الرأس اجلالا لمرقد من
قضى له الله تخليدا بأمجاد

ثم يصف خروج السوريين الى صد جيش فرنسا الكامل العدد والعدة ، ويثني على اقدام شهيد ميسلون وجرأته ومغامرته بجيشه القليل :

في فتية نفروا للموت حين بدا
جريدة في زرافات وآحاد
صلى الاله عليهم من مجندلة
أشلاؤهم بين أغوار وأنجاد
فدى العروبة بالنفس التي كرمت
يا رحمة الله للمفدى والفادي

وعاش ما عاش يحميها ويحرسها
ومات يدفع عن حوزاتها العادي
قد كان قائدها حياة وجامعها
ميتا ، فبورك في الحالين من هاد

ولا يفوته أن يرسل حسراته وأشجانه على دمشق التي أحرقها الفرنسيون ، بهذه الابيات التي تنضح ألما وحسرة ، من قصيدة « يوم الفزع الاكبر » :

باتت دمشق على طوفان من لهب
يا دين قلبي من خطب تكابده
موج من النار لا تهدأ زواخره
يمده آخر ما ارتد وافده
وبل القذائف هطالا له مدد
والنار والنفط والتهديم رافده

لكن لم تكد الصحف العربية تتناقل هذه القصيدة الزاخرة بالنقمة والاسى ، حتى جدت السلطات الفرنسية لاعتقاله وزجه في السجن ، فنزح الى الاسكندرية ، ومنها الى أوروبا ، وظل غائبا مدة أربع سنوات ونصف .

أما قصيدة (يوم ميسلون » فتعتبر من أروع ما قاله المرحوم خليل مردم بك ، فقد صب فيها جام نقمته على الفرنسيين الدخلاء ، وأظهر فيها شحنات من ألمه الدفين على مصرع بطلها ، وكل ذنبه أنه خرج للدفاع عن وطنه ورد المغيرين عليه :

أيوسف والضحايا اليوم كثر
ليهنك كنت أول من بداها
غضبت لأمة منها معد
فأرضيت العروبة والالها
فيا لك راقدا نبهت شعبا
وأيقظت النواظر من كراها
ويا لك ميتا أحييت منا
نفوسا لا تقر على أذاها

الى أن يقول :

مصيبة ميسلون وان أمضت
أخف وقيعة مما تلاها
فما من بقعة بدمشق الا
تمثل ميسلون وما دهاها
ولم أر جنة أمسى بنوها
وقود النار فائرة سواها

ـ ٦ ـ

ترى هل يمكن أن نمر بقافلة الشعراء السوريين الذين هللوا للجلاء وهزجوا بمناسبته ، وننسى شاعر حلب عبد الله يوركي حلاق ، صاحب مجلة الضاد ، الذي نذر نفسهُ لخدمة قومه ، وعروبته منذ فجر شبابه حتى اليوم ، فلم يعرف عنه أنه تهاون أو فرط في حق لغته أو بلاده ، وهذا ديوانه الثاني « حصاد الذكريات » يضم مجموعة من القصائد الوطنية العامرة بروح الثورة والحمية ، أسماها « أناشيد الجهاد » ، منها قصيدته « ذكرى الجلاء » التي استهلها بقوله :

ذكرى الجلاء ترف في أفق المنى
فتعيد ذكرى ثورة وجلاد
أيام أمطرنا الرصاص بوابل
يفرى الحشا ، ويفت في الاعضاد
لكنه ما فت من أعضادنا
الحر لا يخشى الحمام العادي
صمدت له منا الجموع وكافحت
من أجل أعلام وأجل مبادى

ليس في قصيدة الشاعر عبد الله يوركي حلاق ذلك العمل الفني الذي نلمسه في قصائد عمر أبو ريشة أو بدوي الجبل ، الا أنها ولا شك غنية بالعاطفة الصادقة والاحساس، المرهف والايمان العميق بالعروبة والحق الذي لا يصل اليه الانسان الا على جسر من جثث الشهداء :

فالحق تحرزه الاباة بالدما
الحق لا يجنى بلا استشهاد
والمجد لا يبنيه غير أعزة
بصوارم حمر وبيض أياد
تلقى الصوارم في أكف رجالنا
عزا فتأبى صحبة الاغماد
لم يذعن العرب الاباة لظالم
كلا ولا صبروا على استبداد

وهو اذ يقول ذلك فلمعرفته الحقيقية بطبيعة قومه العرب الاباة ، الذين لم يعتادوا على الذل ، ولم يألفوا الهوان في أي عهد من عهودهم الطويلة :

تأبى العروبة ان يسام مقامنـــا
خفضا وتأبى رفعـة الاجـداد

ـ ٧ ـ

كم كنت أمني النفس ، حين رحت أقلب ديوان « ظلال الايام » للشاعر المرحوم أنور العطار ، الذي طبع عـام ١٩٤٨ ، أن أعثر على قصيدته الرائعة في الجلاء ، لأدرسـها دراسة مستفيضة ، وأقف عند كل جزئية من جزئياتها وقفة مستأنية مطمئنة ،فأصبت، لسوء الحظ ، بخيبة أمل،واكتفيت بأبيات منهـا لمتها من هنا وهناك ، كـما يلملم الشحيح دراهمه ، وأنا أعرف أنها لا تنقع الغليل ، ولا تبل الصدى ٠

يوقظ الشاعر في أبياته الماضي العريق ، لينظر الى روعة الحاضر ، وكيف راحت سورية العربية تبني مجدها ، وتشيد صرح عزها ، بعد أن ظفرت بالاستقلال :

اشرقي يا روعة الماضي علينـا
واسبقي اشراقة الفجـر الينـا
وتعالي وانظري كيف بنينا

ثم يحدثنا عن افتتان السوريين بأوطانهم ، واستماتتهم في سبيلها ، وحبهم اياها الى حد العبادة ، لانهم أباة يكرهون الضيم ويرفضون الذل :

هذه أوطاننا نحمي حماها أي قلب لم يتيمه هواهـا
أي نفس حرة ليست فداها

فما ان يرحل المعتدي عن أرض الوطن ، حتى تزدان ربوعه بالزينات ، وتعمه الافراح وتسود البهجة النفوس ، ولا بدع ، فالجلاء يوم أغر مشهر على مر الزمان ، يوزع الخير والسعادة على غيره من الاعياد ، فلتفرح دمشق اذن ، وتهلل بهذا اليوم الطروب :

قد جلا العادي عن الربع الحبيب
وتلالا السعد في الافق الرحيـب
فابسمي فيحاء لليوم الطروب
هو يوم في جبين الدهـر غـره
كل عيـد يستقي منه المسره

كل سحر في الورى يحسد سحره

أبيات على قلتها ، تنساب موسيقاها الشجية انسياب النبع الرقراق ، فتتغلغل في حنايا النفس ، وتستقر في أعماق الوجدان ٠

ـ ٨ ـ

ما قلته في قصيدة أنور العطـار ، أقوله في قصيدة شفيق جبري ، التي أعياني البحث عنها ، في بطون الكتـب والمجلات ، وكلكم يعرف أنه ليس لشفيق جبري ديوان مطبوع حتى الآن ، يمكن أن يلجأ اليه الباحث ، وأنه اعتزل دمشق، واعتكف في بلودان ، لا يبرحها حتى في أيام البرد الشـديد وتراكم الثلوج ، وجنون العواصف ٠٠٠ فاعتمدت فيها على ذاكرتي ، لكنها خانتني هي الاخرى ، ولم تمدني الا ببضعة أبيات كنت قد حفظتها صغيرا في المدرسة الابتدائية ، وهي تصور فرحة الجلاء أبلغ وأروع تصوير ، حيث استخـدم المرئيات والمسموعات ، وأسلوبا آخر يسميه البلاغيـون « تجاهل العارف » ٠ هو يعرف جيدا أن ما يراه في الشام عيد لا حلم ، بدليل هذه الاعلام المرفرفة والاناشيد التي يملأ صداها الكون ، ومع ذلك يتساءل :

حلم على جنبات الشام أم عيـد
لا الهـم هم ولا التسهيد تسهيد
أتكذب العين والرايات خافقـة
أم تكذب الاذن والدنيا أغاريـد

يا لها من فرحة انجلت فيها سحب الهموم ،واستسلمت العيون الى كراها ، بعد سنوات من الارق والسهاد ، ثـم يتساءل عما حل بالفرنسيين ، وقد صار لا يسمع لهم حسا ، ولا يقف لهم على نبأ ، لكنه سرعان ما يجيب بأنهم قد رحلوا الى غير رجعة ، مدحورين مقهورين ، يجرون أذيال الخيبة والفـرار :

ويـل النماريد لا حس ولا نبأ
ألا ترى ما غدت تلك النماريد ؟

لم تكن فرحة الجلاء ظاهرة عابرة ، بل فرحة عميقة، أسكرت القلوب ، وأسالت دموع الفرح على الخدود ٠ أفلا يبكي الفرح الانسان مثلما يبكيه الحزن ؟

كأن كل فؤاد في جلائهم
نشوان قد لعبت فيه العناقيد
ملء العيون دموع من هناءتها
فالدمع در على الخدين منضود

والعيد لا بد أن يذكره بالمرحلة التي سبقته ، فهو لم يأت عفوا ، ولم يقدم هدية ، بل دفع السوريون ثمنه باهظا في التاسع والعشرين من أيار ، يوم نكبت دمشق أسوأ نكبة وروعت بالنيران أبشع ترويع ، ولاسيما الاطفال الذين لم تهدأ مخاوفهم أبدا :

يا يوم أيار والنيران ملهبة
على دمشق تلظيها جلاميد
الطفل في المهد لم تهدأ سريرته
مروع من لهيب النار مكدود

— ٩ —

كانت قرائح الشعراء تتفتح كلما أطل في الافق نيسان جديد تفتح أكمام الورد عندما يباكرها الطل ، وستظل تتفتح وتعطي أحلى الكلام لاروع عيد في تاريخ سورية ، رغم مضي أكثر من ثلاثين عاما على جلاء فرنسا ، وأنا واثق من أن ثمة قصائد في الجلاء لم تنشر ، ولم تزل في أدراج ناظميها ، وانما ألقيت على المنابر فقط ، وظلت بعيدة عن أنظار الدارسين ... والواقع أنني بعدما فرغت من كتابة هذه المحاضرة فوجئت بقصيدة للشاعر أنور الامام في الجلاء ، فآثرت أن أضمها لانها حجر القفل الذي يكمل مدماك البحث ، رغم أنها قيلت في السبعينات كما أعتقد ، الا أنها تتسق كل الاتساق مع ما قيل في الجلاء من قصائد : أفكارا ، ووزنا ، وأسلوبا وطريقة نظم لم يحد الشاعر عنها، رغم انداياح موجة الجديد في الشعر المعاصر .

يستهل أنور الامام قصيدته بمعنى ربما يكون قد سبقه اليه غيره ممن نظموا في الجلاء ، وهو أنه لولا الشهادة والفداء لما لاحت في الافق بارقة أمل في انقشاع غيوم المستعمر عن البلاد ، وأن الشعوب لا تنال حقها الا بنضالها، والمجد لا يورق ما لم تسقه الدماء ، واذا سقيت الارض بالدماء الزكية ، أنبتت أبطالا لا يهابون الموت :

مهر الجلاء شهادة وفداء
لولاهما ما كان ثم جلاء
حق الشعوب تناله بنضالها
والمجد يورق ما سقته دماء
والارض ان عبت نجيعا عاطرا
فنباتها الابطال والكرماء

ثم يتحدث عن وقفة العز المشرفة التي وقفها شعبنا البطل قبل الجلاء ، وعن تصميمه الاكيد على دحر الدخلاء الغاصبين ، وصيحاته المجلجلة التي اهتز لها الكون ، تنادي بخروج أولئك الذين راحوا يتباهون ويختالون عجبا ، كأنهم سادة ونحن عبيد :

اني لاذكر وقفة يزهو بها
قومي وتفخر باسمها العلياء
الشعب في ساح النضال مصمم
لا ينثني أو يخرج الدخلاء
أنف اختيال الغاصبين فجلجلت
صيحاته فاهتزت الارجاء

ويقف — كما وقف غيره — عند حادثة ضرب دمشق ، يوم صب الفرنسيون الرصاص عليها كالحميم ، ودمروها بمدافعهم وقنابلهم بلا رحمة أو شفقة ، فصمدت صمود الجبل الاشم ، واستماتت في الدفاع ، حتى تحققت أمنيتها الكبرى في الجلاء ،وقطفت ثمرة النصر والحرية والاستقلال:

ركب الطغاة رؤوسهم وتحكمت
في الامر منهم نقمة هوجاء
صبوا القنابل كالحميم وجلق
طود عليه تحطم الانواء
صمدت بساحات النضال وصانها
شعب الى غاياته مشّاء
خرجوا وعيد العرب يوم جلائهم
عيد عليه من الجلاء رواء

ويبارك نيسان ، شهر الكرامات والخير والعطاء ، شهر استيقاظ الطبيعة والانسان معا ، شهر انتشار العبير وتفتح الورود ، وهل هنا ورود أشهى من الجلاء ، كما يقول الشاعر ؟ :

نيسان يا منح الورود شـهية

أشـهى الـورود تفتـح وجلاء

مرت بشائره معطرة الرؤى ...

في ميسلون فزغـرد الشـهداء

ويلتفت أخيرا الى أبي الشهداء يوسف العظمة ، يدعوه الى النهوض من قبره في هذا اليوم التاريخي ، ليشـارك الشعب أفراحه ، ويرى الشام وقد رحل عنها الدخلاء ، ثم يؤكد للغاصبين أن سورية اذا ما وعدت وصممت ، فلا بد أن تنجز وعدها ، وتحقق تصميمها :

وأطـل يوسـف والبهـاء يزينـه

ليرى الشآم وقد جـلا الدخـلاء

ليقـول للغازيـن ان عهودنـــا

رغم الشدائــد ذمـة ووفـــاء

تطـوى الليالي الكالحات وينجلي

صبح أصـيل مشـرق وضـاء

- ١٠ -

فاذا انتقلنا الى المهاجر ، وجدنا الصيحات المدوية في شعر جورج صيدح ، هذا الرجل الوطني الحر ، الذي يقطن في باريس ، وقد أنهكت الشيخوخة جسمه ، وان لم تنهك عقله وتفكيره ، فهو لم يزل مقيما على الوفاء لعروبته الصافية ، منذ أن غادر مسقط رأسه دمشق قبل نصف قرن ،ولاصدقائه الذين تخطفهم الموت واحدا واحدا ، فرثاهـم جميعا بقلب يعصره الاسى ، وعبرات لا تجف ، فها هو ذا يرتفع صوته من بونس آيرس ، عاصمة الارجنتين قائلا :

هيئي يا دمشـق أقواس نصـر

من عنـاق الاعـلام والمشرفيـه

وانظمي موكب الجلاء وسـيري

أمـة بالجهــاد تبعث حيـه

ثم يشير الى مواكب الشهداء ، وقوافل من صرعهـم بغي المستعمر ، فانطووا في ظلمة القبـور ونامـوا تحت الصخور ، لو حياهم أحد في هذا اليوم الاغر ، لردوا عليه التحيـة :

في طريـق تعبـدت بالمواضـي

كـل بـاع بهـا ضريح ضحيه

كم شهيد تحت الجنـادل مصـغ

ان وقفتم عليـه رد التحيـه

قصيدةرائعة، يحار الدارسماذا يختار منها، وماذا يترك ضمنها ديوانه « حكاية مغترب » وكل بيت أجمل من أخيه ، لذلك لا بد من الرجوع اليها كاملة في الديوان ، وحسبي أن أثبت منها هذه الابيات التي تنم عن تعلق صيدح يوطنه ، ونمو الحس القومي عنده ، أفلا يستحق منا لفتة تكريم قبل أن يرحل ، كما رحل قبل مدة قصيرة شفيق المعلوف والياس فرحـات ؟ :

يا لعيـد تـزف جلـق فيـه

آيـة الحـق للشعوب العتيـه

رحل الضيف مثقلا بالمعاصـي

يركب العار في البحار مطيـه

زغردي يا حرائـر الشام هـذا

مهرجـان لاختـك الحريـه

خطبوهـا في ميســلون فـأدى

« يوسف » المهر بالدماء الزكيـه

أقسم أنني لم أقرأ أجمل من قوله : ان يوسف العظمة خطب الحرية ، فقدم لها دماءه الزكية مهرا . ألا بورك هذا المهر ، وبورك قائل هذا المعنى الرائع الذي قل أن يفطن به شـاعر .

- ١١ -

أما قصيدة المرحوم نصر سمعان ، شاعر العروبة ، كما كان يلقب ، فلا تقل روعة عن قصيدة صيدح . انها درة فريدة حواها ديوانه الذي طبع بعد وفاته في البرازيل عام ١٩٧٢ ، وأشرف عليه رشيد شكور ، ولا غرو ،فنصر سمعان شعلة قومية وهاجة ، سطعت في سماء المهجر الجنوبي ثـم انطفأت ، وخلفت حرارتهـا التي ما تزال تستعر فينا ، في قلب كل عربي مؤمن صادق العروبة . هذا ونصر سمعان من حمص ، أو من بلدة « القصير » على وجه التحديد ، هاجر وقلبه لا يخفق بغير حب قومه ، وسعيه لرفعتهم وسيادتهم ، ووحدة كلمتهم ، فلنسمعه يقول في الجلاء :

نبت العـز في ظـلال بنـوده

ومشـى النصر في ركاب جنوده

وطن كم وددت في عيده الاكبـ
ـر لو كنت شاهدا من شهوده
هتف المجد بأسم أبطاله الصيـ
ـد وهز الزمان ذكر عيده
وكسا البشر أرضه وتجلت
زهوة الفتح في مواكب عيده
ثأر الحق فالاغاريد تترى
والزغاريد فوق قبر شهيده

والجلاء في ذهن كل عربي يرتبط ارتباطا وثيق الصلة بيوسف العظمة ، فلا بد أن ينال هو الاخر حصته من التمجيد واكبار بطولته الخارقة ، وشجاعته الفريدة فيقول :

شرفا ميسلون كل جهاد
شرّف العرب أنت درة جيده
أيقظي يوسف الشهيد فهذا
العيد يا ميسلون عيد خلوده ٠٠

ثم يختم قصيدته بهذه الابيات التي تعبر عن صدق محبته لبردى وميسلون التي مهرت الجهاد أغلى الغوالي :

شرفا ميسلون مجدك باق
أي عات يقوى على تبديده
يومك الابلج الوضيء المحيا
زان نور الوجود نور وجوده
بردى ينشد الاهازيج والار
ز تحييك روحه بنشيده
وحمى كل ناطق عربي
يطفح البشر من شغور وروده
قد مهرت الجهاد أغلى الغوالي
فحباك الجهاد أغلى عقوده
أنت يا ميسلون معقل شعب
خفقات القلوب خفق بنوده

وعندما قصف الفرنسيون دمشق وأحرقوها ، كان لذلك الحادث الفاجع رد فعل كبير في نفسه ، فراح يقول والاسى يعصر قلبه :

هبت وعين الزمان ترقبها
وخاض بحر الرجاء مركبها
الله في أمة مجاهدة
سعير حمى الآباء ينهبها
لا عاديات الزمان تقهرها
ولا مراقي الطموح تتعبها

هناك شاعر آخر أحببت أن أجعله خاتمة المطاف ، ألا وهو زكي قنصل ، الذي يعيش الان في الارجنتين ، ومن منا يجهل شاعر « غلواء » كما يسمي نفسه ، وصاحب ديوان « نور ونار » وديوان « عطش وجوع » ، وهو الذي ملأت قصائده الهادرة دنيا العرب ، يرتفع صوته في كل مناسبة قومية ، ليستنهض همة شعبه ، ويبعث فيه روح النخوة والحمية ، ولا أبالغ اذا قلت أنه خليفة القروي وصيدح وفرحات في المهجر الجنوبي ، عقدوا له لواء الشعر الاصيل الذي ينبع من نفس محترقة ، ويتحدر من وجدان حي ،وطبع مرهف ، كما يتحدر السيل ، أو كما يتفجر الينبوع من قلب الجبال ٠

لا أظن أن أحدا يستطيع أن ينكر على الشاعر زكي قنصل صفاء عروبته ، ونبل عقيدته ، وشرف أهدافه ، فقد حمل راية القومية العربية خلف البحار ، وكأنه سفير بلا سفارة ، فلا غرابة أن يؤلف عنه الاستاذ عبد اللطيف اليونس كتابا كاملا ، يدرس فيه حبه وحنينه ، ويتحدث عن تعلقه بوطنه الام ، كما يتعلق الرضيع بثدي أمه ٠٠ ولذلك لم تكد الجالية السورية في الارجنتين تعلن عن عزمها على الاحتفال بأول عيد للجلاء عام ١٩٤٦ ، حتى كان أول المتكلمين فيه ،

ثورة الشعب لم تزل في البدايه
ضل من يحسب الجلاء نهايه
ألف الحمد لا تمثل الا
مطلع الحمد لا ختام الآيه
قد تساس الشعوب بالسوط لكن
كل درب له - وان طال - غايه

ثم يخاطب الفرنسيين الذين عبثوا بالحق ، وداسو الكرامة ، ليقول لهم ان هذا الحق لا بد أن يظهر ، مهما أمعنوا في التضليل ، ومهما خبا نور هذا الحق :

أيها العابثون بالحق مهلا
ان للحق ألف جيش ورايه
حرسته عناية الله مما
يتمنى له خصوم العنايه
ان خبا نوره لماما فلن يخبو
دواما ولن تطول العمايه

ثم يحدثنا عن الخسارة التي مني بها المتعمر ، وكيف عاد في النهاية مدحورا يجر أذيال الخيبة والخسران ، بعد أن عاث في الارض فسادا ما شاء له أن يعيث ، لان صيحات الجهاد زلزلت رواسيه ، وشلت يديه ، ولم يستفد من كل

ما حشده من جيوش وأسلحة وعتاد ، وجمّع حوله من عملاء وأذناب ، وادعاء من الغيرة على مصلحة الوطن :

عاش في موطني الدخيل ولكن
عاد بالخزي في ختام الروايه
زلزلت صيحة الجهاد رواسيه
وشلت يديه منا رمايه
لم يفد ما أعده من جيوش
وادعاه من غيرة ووصايه
لم تفده سعاية من عميل
شر ما يطبخ العميل سعايه

لقد علمته تجارب الحياة أن ينطق بالحكمة ، فهو شاعر قد حنكه الدهر ، وأمده بالخبرة العميقة ، فكم من باطل ارتد على مروجيه ، وكم من وشاية أطاحت بمن حاكوها ! وخير الناس من تمسك بالحق وحده لانه باق ، وسواهم حثالة لا خير فيها :

يذهب البطل بالذين استغلوه
وتجني على الوشاة وشايه
صفوة الناس من تمسك بالحق
ظهيرا ... وما عداهم نفايه

ثم يلتفت الى أولئك الذين خاضوا غمار الموت فعلا ، وتطهروا بنيران المعركة ، ليقول لهم انكم وحدكم موئل الرجاء ومحط الامل لحماية الملايين التي تنظر اليكم بلهفة وشوق ، وانكم النجوم التي تضيء دروب المستقبل للسارين والضائعين :

يا حماة الديار مرحى لأنتم
خير من ترتجي لديه حمايه
أين من خاض غمرة الموت ممن
خاضها في رسالة أو حكايه
قد زرعنا رجاءنا في ثراكم
فاجعلوا غاية المطاف بدايه

أنتم نجمة الصباح لساريـ

ـن وأنتم للضائعين هدايه

وأخيرا يبعث بتحيته من وراء البحار الى كل من نجا من معركة الشرف والبطولة ، ويطلب من الله أن يجزل ثواب من مات فيها :

أجزل الله أجر من مات منكم
ورعى السالمين خير رعايه !

وكما ربط باقي الشعراء بين الجلاء وفاجعة ميسلون التي فجرت ثورة الجلاء فيما بعد ، كذلك فعل شاعر غلواء، فقد مجد شهيدها ، وبارك صموده واستبساله ، ولا سلاح معه غير ايمانه المطلق بعدالة قضيته ، وحق وطنه بالحياة العزيزة الكريمة :

يا راقدا في ميسلون سقى
بدمائه حرية العرب
لله وقفتك التي جعلت
صغرى الهضاب أميرة الهضب
جالدت بالايمان تطلقه
نارا بوجه الجحفل اللجب
لم تلق بالا للالى زعموا
أن العناد مطية العطب

ثم يخاطب قبره الرابض في ميسلون ، فيقول انه أشبه بمحراب يلوذ به المؤمنون ، ليتبركوا منه ، أما تمثاله الشامخ بعنفوان الى السماء ، فانه يحوم حوله بالنجوى ، ليستمد منه الوحي ، والالهام .. تنظر اليه الشمس خاشعة ، وتغض السيوف طرفها خجلا من شجاعته :

مثواك محرابي أطوف به
وأحوم بالنجوى على النصب
ترنو اليك الشمس خاشعة
ويغض طرف الصارم الذرب

لقد جلا من صرعوا يوسف العظمة ، وغابوا في مطاوي النسيان ، الا أنه سيظل خالدا على مر الاجيال وتوالي العصور ، يحكي الاجداد للاحفاد أخبار بطولته المشرفة :

ذهب الالى صرعتك رميتهم
وبقيت فوق مدارج الحقب
يا قاهرا بالموت باطلهم
آب الغزاة الى الحمى فأب

قلت في بداية هذا الكلام ان ما قيل في الجلاء من قصائد يؤلف ديوانا ضخما ، ولا أزعم أنني أحطت بها كلها، وحسبي أكون قد سلطت الضوء على أشهر هذه القصائد ، ونوهت بها وبقائليها لكن ثمة قصائد لا تقل عنها روعة لشعراء لا ينتمون الى سورية جغرافيا ، بل ينتمون اليها قلبا وعاطفة وهوى ، هزتهم فرحة الجلاء ، فسطروا الفرحة شعرا ، كالقروي وفرحات ومحمد علي الحوماني ، أرجو أن أعود اليهم في مناسبة أخرى .

عيسى فتوح



الى نيسان

اسماعيل عامود

دفق الغصن بالطيوب ، فدرب الكرم شدو ، والسفح أينع زهرا
وعلى الكأس غردت شفة الحب اشتياقاً ، والحب صفق سكرا
ورفيف الظلال في الورق الهفهاف شجو معربد راما قطر
لحظات من الربيع تلف الكون سحراً ، والكون يطفح بشرا
خفقت رغبة بصدري فكلي ، بسمات تهيم حباً وشكرا

★ ★ ★

يا جموح الأهواء جنت ليالي الكرم ولهى ، ترود ساحك كبرا
تسأل البوح من شفاه عذارى ٠٠ وعذارى أغضين طرفاً وثغرا
تنهل الوهم من شرود الأماني ، وتريق الشجون في القلب جمرا
وأنا ، هاهنا ، غريب الأناشيد ، هويت الربيع ، دهراً ، فدهرا
أقطف الشهب عن صدور الصبايا ، تائهات عبر الصدور ، وعبرا
حالم أشتهيك في الغداة فتدنو رسل الشعر في شعابي تترى

★ ★ ★

يا رفيف الألوان ، أتبعك التجوال ، رفقاً بخطرة منك حيرى
أنت ، ما أنت ، دفقة من جمال ، تترك الليل في مجالك فجرا
سكرت في مداك أجنحة الأطياف وزراً ، والنور أجفل بدرا
في شعاب السفوح ، قرب مرامي الظل ، عند الذرى ، قرأتك شعرا
دربك العنبري ، دربي مدى العمر تراءى ، والدرب نشر عطرا
أتملاك فتنة من خيال ، تستنير الحياة قلباً ، وفكرا

★ ★ ★

فاذا حاضري غناء وشعر ٠٠ واذا الكون عاشق خط سفرا
يا ربيعي ، وأنت سحر تجوب الظن وهماً ، فأشتكي منك سحرا
في ليالي الحقول ذوب أغانيك ٠٠ ملأن الدروب شعراً وخمرا
تسكب الدفء في العروق فشدو في لساني ، وغمرة منك ذكرى

اسماعيل عامود



الجزيرة العربية

ابراهيم حريب

(ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

« صدق الله العظيم »

- مدخل -

استجاب الله دعاء نبيه ، وصدق وعده ، وبر بعهده ، فهوت قلوب الى بيت الله المحرم ، عند واد غير ذي زرع ، وشخصت اليه الابصار والبصائر ، فحج اليه ناس وقعد غيرهم ،وسارت بأولئك المطي ضوامر ،تمد أعناقها ،وتضرب في الفيافي والقفار ، وتعلو جبلا وتهبط سهلا ، تطأ باخفافها الارض فلا تكويها رمال تتلظى من تحتها ، ولا تحس بظمأ أو تشعر بجوع ، يحدوها حاد يرتل حداءه ، شجي النغم عذب الصوت حلو النبرات ، ومشى الناس خفافا لا يرمضهم هجير ولا يثنيهم قر ، ولا يلهيهم من متاع الدنيا شيء . ييممون وجوههم شطر البيت الحرام ، يحدوهم حاد أعظم ، فتبتل أكبادهم الظامئة بنعمة الايمان ، وتمتلىء نفوسهم وقلوبهم بالحب العظيم ، وترهف أسماعهم للنداء العذب الرقيق ، ويندفعون نحو البيت العتيق ، ويزحم بعضهم بعضا ، ويطوفون من حوله ، فترتفع التلبية ساحرة شيقة « لبيك اللهم .. لبيك » وتمتلأ الاجواء بالنغم الداوي ، وتردده أصداء الجبال والوديان ، بخشوع يبعث في النفس هدوءا ورحمة ، تطمئن اليها القلوب الوالهة والافئدة الواجفة ، فترجع فيه النفوس الزائغة الى ربها مؤمنة طاهرة نقية ، تائبة عما أسلفت في الايام الخالية ... يسعون بين الصفا والمروة ، بغير سغب أو تعب ، تغمرهم النشوة برفق ، ويلفهم الايمان بحنان .. فهم بين يدي الله ، في بيت الله ، كلهم سواء بسواء .. لا سيد ولا مسود ،لا حر ولا عبد ،لا ملك أو رعية ، يتوبون اليه فيغفر ، ويبتهلون فيرحم ، ويدعون فيستجيب ..

وافتتن الناس ، عربا وأعرابا ، في فترة من الزمن ، وزاغت بصائرهم ، فنصبوا الاوثان عند البيت المحرم ، يعبدونها من دون الله ، أحجارا لا تضر ولا تنفع ، ولا تهدي أو تشفع ، وبعضها من تمر يأكلونه عندما يجوعون! ..

فعاشوا بجاهلية جهلاء ، في ظلمات من فوقها ظلمات ، لكن الافئدة ظلت تهفو الى البيت المحرم بخشوع ، والابصار ظلت ترنو اليه بلهف وشوق ، وما فتئوا يطوفون ويسعون ويدعون الله العلي القدير ، فتمتلأ الوهاد بشجيء أدعيتهم ، تنداح بعيدا ·· بعيدا ، فتمتلأ الارض والسماء ·

وخسئت أمام البيت العتيق جيوش أبرهة وعتوه وصلفه ، وارتدت عندما أراد به سوءا ، ليدكه ويصرف عنه قلوب الناس وعقولهم ، « فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » · « وان للبيت ربا يحميه » ·

وجاء النبي العظيم ، فعم نور الله وغمر العالم كله ، ووسعت رحمته كل شيء ·· فتحطمت أصنام ، ودثرت أوثان ، وأزيحت من العقول أوهام وضلالات ، وجاءت الحقيقة بصدقها وثباتها ، وزال الزيغ واهتدى الناس وآمنوا ، وأسلم لله أكثر المشركين عتوا واستكبارا ، فتطهرت الارض الطيبة ، ونفت عنها خبثها ورجسها ، وعاد الحجيج الى أرض غير ذات زرع ، ميمما وجهه كرة أخرى شطر البيت الحرام ، يحدوه الهدى ، ويدفعه الايمان ، واستمر الطواف حول الكعبة ، والسعي بين الصفا والمروة ، لم يهدأ ولم يفتر لحظة واحدة ، ليل نهار ، وفي الحر اللاهب صيفا ، وفي البرد القارص شتاء ، وبين بين ، في ربيع وفي خريف ، منذ أن فتحت مكة أبوابها · ليدخل اليها محمد ابنها البار العظيم بعد غياب طويل في مهجره ، وحتى يومنا هذا ، والى الابد ··

ـ ٢ ـ

أين هذا الوادي الذي أسكن فيه النبي ابراهيم من ذريته ، وهو غير ذي زرع ، فجعل الله أفئدة من الناس تهوي اليه ؟ ·· وأين البيت المحرم الذي أمر الله أن ييمموا شطره وجوههم في صلواتهم ، ويحجوا اليه ؟ ·· وأية سماء انبجس فوق أرضها نور الله ، فغمر السموات والارض كلها؟ ·· وفي وفي أية أرض أنزل الله قرآنه المبين ، على قلب نبيه العظيم ؟ ·· وبلغة أي قوم نزل القرآن فكرمهم به ؟ ·· ومن هم أولئك القوم الذين كان منهم النبي العظيم ، أرسله الله للعالمين بشيرا ونذيرا ، يعلم الناس الحكمة والخلق العظيم ، ويهديهم الى دين الله ، فأخرجهم من الظلمات الى النور ؟ ·· بل أية أرض ولد فوقها وعاش عباقرة عظماء ، نشروا الدين وحملوا رسالة السماء الى أصقاع الارض كلها ، يهتدون بهدي رسول كريم ، فجر الطاقات البشرية وأنار للعقول سبل الرشاد ، وأزاح ركاما من الجهالة ظل يرين على عقول الناس حينا من الدهر طويلا ؟ ·· وأصبح أولئك الرجال ، قادة عسكريين ، ومعلمين ورواد فكر ، وهداة خير ودعاة حق وعدل ، ورجال صدق ، خلقوا حضارة جديدة تميزت على ما سبقها من حضارات وما تبعها ، فيها نسمة من روح الله ، وسعة من رحمته وفيها فكر أضاء للناس سبل الحياة ، بكل ما فيها من خير وحق وجمال ، وبقي العالم كله، قرونا يعيش في ظلها ، ويتدفق اليه عطاؤها ·

وسنرى ذلك ·

ـ ٣ ـ

ذلك الوادي ، وهذا البيت ، هما في قلب الجزيرة العربية التي اختصها الله برسالته ، ومنها جاء النبي العظيم يدعو الناس الى عبادة الله ، ويعلمهم الحكمة والخلق العظيم، فيها ولد العباقرة العظام الذين ساروا بهدي النبي ، وأعطوا للعالم حضارة فيها الخير والحق ، وفيها من الشرق سحره وروحه ، فأخذت من أطراف الحياة وصميمها ، ووضعت الانسان في مكانه الصحيح ، حرية وفكرا واجتماعيا ، واهتمت بنفسه وعقله وعيشه ، مما جعله قادرا على حمل الرسالة الانسانية الى الناس كلهم ، فاستظلوا بظلها ·

والجزيرة العربية هذه ، هي موطن العرب ، ليست بالجزيرة كما يعرفها الجغرافيون ، وانما هي شبه جزيرة ، تحجزها الصحراء والبحار ، ولعل هذا هو سر احتفاظها بطابعها الخاص المميز ، دهورا ، انعكس بعمق على نفسية ناسها وعقليتهم ، وأن ابتعدوا عنها وسكنوا في أرض غيرها ··

يقول عنها ابن منظور صاحب لسان العرب : « سميت جزيرة ، لان البحرين ، بحر فارس وبحر السودان أحاطا بناحيتها ، وأحاط بجانب الشمال دجلة والفرات » · لكن الهمداني أعطى لوصف الجزيرة تفصيلا أكثر ، اذ قال « سميت بالجزيرة لاحاطة الانهار والبحار من جميع أقطارها وأطرافها

فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر . لان الفرات أقبل من بلاد الروم ، وانحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق ، حتى وقع في البحر من ناحية البصرة والابلة وامتد الى عبادان .. وأخذ البحر مغربا الى مطبقا ببلاد العرب منعطفا عليها فأتى منها الى سقوان كاظمة الى القطيف وهجر وأسياف البحر وعمان والشحر .. ومال منه عنق الى حضرموت وناحية ابين وعدن ، وانصب مغربا الى دهك ، واستطال هذا العنق ، فطعن في تهائم اليمن الى بلاد فرسان وحكم والاشعريين وعك ، ومضى الى جدة ساحل مكة ثم ساحل الطور وخليج ابلة وساحل راية حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها . والنيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا البحر معه ، حتى وقع في بحر مصر والشام ، ثم أقبل من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين ، فمر بعسقلان وسواحلها وأتى على صور ساحل الاردن ، وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ، ثم نفذ الى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطا على أطراف قنسرين والجزيرة الى سواد العراق » .

وفي تفصيل الهمداني ذكر لاسماء مدن ومواقع ، لا نظنها تحتاج الى شروح وتبيان ، فهي واضحة جلية ، غير أننا نلخصها بما لا يخرج عن وصف الهمداني في ما يلي :

يحدها من الشرق بحر عمان وخليج البصرة ، ونهر الفرات ، ومن الجنوب بحر العرب ، ومن الغرب البحر الاحمر وقناة السويس ، ومن الشمال البحر الابيض المتوسط ، وخط من العريش مارا بحدود فلسطين الجنوبية منعطفا نحو الشمال حتى حدود الشام الشرقية فيقارب تدمر ثم ييمم الشرق الى الفرات ، ثم الجنوب الشرقي الى شط العرب والخليج العربي ..

ولقد قسمها العرب في الماضي الى خمسة : تهامة ، الحجاز ، نجد ، العروض ، واليمن ، غير أن ابن حوقل أضاف اليها ثلاثة أصقاع هي : بادية الشام ، وبادية الجزيرة ، وبادية العراق .

وينسجم هذا التقسيم مع طبيعتها الجغرافية ، ويتلائم مع مناخها المختلف . غير أنه لسهولة دراستها ، يمكن يقسمها الى ثلاثة : الشمال ، والجنوب والوسط .

فالشمال يقع على شاطىء مدين ورأس الخليج وما يتصل به شمالا ، وهو صحراء حجرية ، في الشمال ورملية في الجنوب ، وفي مواسم الامطار تنبت بعض أطراف صحرائه الاعشاب الصالحة للرعي .

والوسط ، الحجاز ونجد والاحساء . وأكثره قاحل ، ولكن تتخلله آبار وغدران ، وأودية تجري فيها السيول في مواسم الامطار ، وفيه مدن وقرى كثيرة .

والجنوب : هضبة عسير واليمن في غربيه ، وفي شرقيه الجبل الاخضر ، وأمطاره غزيرة في بعض النواحي ، وأرضه خصبة ممراع ، وغلاله وفيرة ، وطبيعته معتدلة ، وفيه أودية ، تسيل في بعضها الامطار دوما حتى تهبط الى تهامة..

أرضها صحراء في أكثر بقاعها ، ليس فيها أنهار أو بحرات الا أودية في بعض أرجائها - كما ذكرنا - ، والاغدران في أراضي مطمئنة تختزن مياه الامطار ، وحولها روضات تنبت فيها الاعشاب والنخيل وبعض الاشجار .

- ٤ -

تحتجز الجزيرة - كما بينا - صحاري وبحار وأنهر ، وهذه الحواجز ، ولعل أهمها الصحراء ، هي التي صدت المغيرين والغزاة في الماضي ، فلم يصلوا الى قلبها ، انهم يخشون الصحراء والمتاهات ويهابون ناسها الذين آمنوا بأرضهم فالتصقوا بها ، وصانوا كرامتهم فاعتزوا بها ، وتمسكوا بعباداتهم وتقاليدهم ،فكانت قوانين تنفذ وتراعى بغياب حكومة ذات تنظيم سياسي واداري ، واتقوا الذلة والمسكنة ، ولعل الغزاة الذين غزوا اليمن في الجنوب ، لم يجدوا من قلب الجزيرة خيرا يصيبونه ، أو غنما ينالونه ، فارتدوا عند أطرافها . فعاش العرب في جزيرتهم بعزلة ، وما كانوا يمارسون صناعة أو حرفة ، وكان سراتهم يعملون بالتجارة في رحلتي الشتاء والصيف ، ومنها فتحوا نافذة على العالم من حولهم ، فتأثروا به وأثروا فيه ، وكانت الماشية مصدر رزقهم . فمنها غذاؤهم وكسائهم ، ينتجعون بها حيث الماء والكلأ ، ليحفظوا لها حياتها ،وتصون لهم عيشهم ،ولعل الهجرات التي انساحت من الجنوب الى الشمال والى أصقاع أخرى من البلقاء وبادية الشام والعراق وافريقية ، كان

العامل الاقتصادي أهم باعث عليها ، ولعل حياة النجعة عند العربي كانت عاملا آخر في هذه الهجرة ، فلا يرى فيها أمرا ادا ، ما دام يجد في مهجره ماء وكلأ لماشيته ومثوى عزيزا عليـه ٠

وطبيعة هذه الحياة جعلت من الانسان العربي يلتصق بشيئين أساسيين : أرضه وقبيلته يزود عنهمـا العوادي ، وتدفعان عنه الشرور ، فضلا عن الفكرة الانسانية التي آمن بها ، وتمسكه بقيم معينة هو الذي خلق في نفسه الفكرة الانسانية ، وان اعتورها نظرة فردية أحيانا ٠

هذه الحواجز التي صدت الغزاة ، هي نفسها التـي كانت الاساس المتين في احتفاظ الامة بخصائصها الذاتيـة المميزة ، أفرادا وجماعات ، حتى دفعت بهم الى المغالات في بعض هذه الخصائص ٠

فلقد كان تأثير الصحراء عميقـا في تكون الحيـاة الاجتماعية وتنظيمها ، فالقبيلة هي أساس تكون المجتمـع ونظامه الذي أملته ظروف الحيـاة في الصحراء القاحلـة الواسعة ، بما فيها من أمن وخوف ، وسلم وحرب ، وجدب وخصب ، ورغد عيش وضنك ٠

والنظام القبلي ـ بغياب حكومة ـ خلق الفروسية عند العربي ، وكان انتصار الفرد في حرب نصرا للقبيلة ، وبـه تعتز وتفتخر ، فالفرد قد يمثل حياة القبيلة كلها ، واذا فخر الفارس بانتصاراتـه ، فانما يفخر أولا بنفسه وسـلاحه وجواده ، ثم بقبيلته التي ينتسب اليها ويحميها وتحميه ، ولهذا لم تكن الحرب نظامية تستعد لها الجيوش وتنظـم وتلتحم مع بعضها بعضا في معارك فاصلة ، ولكن في كثير منها يتبارز فارسان ، يكون النصر فيها لمن يغلب ! ٠٠ واذا وقعت غارات جماعية ، فهي تقع حينا بغياب الفارس الندب ، أو تقع لاسباب انتقامية أو ثأرية ٠

ولا نظن ـ كما ذهب البعض ـ أن العربي كـان في غاراته راغبا بالاعتداء على الناس لنهب أموالهم وسـبي ذراريهم ، فالقيم التي آمن بها تصده عن مثل هذا ، فهـو يحمي المرأة ويحترم الشيخ ويرعى الصبي ، ويعتز بذلـك كله ، والكرم والوفاء بالعهد ، والمروءة ، كثير ما تصده عن أمور لا تتلائم مع نفسيته وأخلاقه ٠

لكننا نجد للغارات والغزوات والحروب أسبابا أخرى ، غير الرغبة في الاعتداء والنهب والسلب ، فالتزاحم على الماء والكلأ ، وهما نادران في الصحراء هو الذي أدى الى الاقتتال والقتال تكون نتيجته الحتمية سلبا وسبيا ، ثـم يؤدي الى الثـأر ٠

والعربي لا ينسى ثأره مهما طال الامد عليه ، ولعل مبعث هذا أسطورة صاغها العربي نفسه ،وخلاصتها أن طيرا يسمونه « الهامة » يخرج من رأس القتيل ويصيح : اسقوني ٠٠٠ الى أن يثأر له من القاتل أو من قريب له ، وفي ذلـك يقول ذو الاصبع العدواني :

يا عمرو ، ان لم تدع شتمي ومنقصتي
أضربك حتى تقول الهامـة اسقوني

أي حتى تموت ! ٠٠

وقد يقبل العربي بدية القتيل ، لكنه يعتبر في أخذها منقصة تشوبه ، ولا تمحى من نفسه آثارها ، وقد لا تحول بين ذوي القتيل وبين الثأر له ٠

فالتزاحم اذن ، أخذ أبعاده الاخرى كلها ، ٠ الثأر ، النهب ، وفي عصرنا الحاضر ، قد تخلصـت بعض الامم والافراد من الثأر ودوافعه ونتائجه ،لكننا نجد النهب والسبي ما زالا قائمين تمارسهما الامم المتحضرة في القرن العشرين ، وأخذا أبعادا جديدة ، يسمونها حضارية وارشادية ، هـي سلب أمم وشعوب واستثمارها ، بشكل أشد قسوة وأكثـر فحشا مما كان من ذي قبل ٠

واذا كانت الصحراء قد صانت العرب في الماضي مـن الغزاة ، واذا كانت الحروب الداخلية هي السمة الظاهـرة للخلافات بينهم ، فليس معنى ذلك أن العرب لم يدخلوا في حروب قبل الاسلام مع أمم وشعوب أخرى ، طمعت وأرادت استعبادهم ٠

والحقيقة أن حروبا محدودة اندلعت بين العرب وبين بعض جيرانهم ، كحرب اليمن ضد الاحباش ، ويوم ذي قار لبني بكر مع الفرس ، وعنه قال محمد النبي الكريم ، « هذا أول يوم اقتص فيه العرب من الفرس » ٠ وهـي حروب لا تتسم بالعداء من العرب على أحد ، وانما كانت حربا وقائية لصد عدو غريب ! ٠٠

قلنا أن القبيلة هي أساس المجتمع في الجزيرةالعربية قضت بذلك طبيعة الحياة في الصحراء والعوامل الاقتصادية والامنية ، وتولدت من هذه الحياة ظاهرتان اخريان ، همـا الحلف والولاء ٠

فثمة أحلاف طبيعية بين بطون القبيلة الواحدة ، وقد يستمر هذا ، الا بواقعة تحدث فتفرطه ، وأحلاف مؤقتة بين قبائل متباعدة النسب ، يكون الدافـع اليهـا اما عداوة مشتركة لقبيلة أخرى ، وأما مصلحة طارئة بينها ، تمليها ظروف الرعي والتنقل ، وتنتهي هذه الاحلاف بانتهـاء الدافع اليها ٠

والولاء : اما أن يكون سببا في غارة أو غزوة ، واما أن يكون حلفا أو اصطناعا ، بأن يلجأ فرد من قبيلة اقترف بينها ذنبا ، الى قبيلة تأويه ويلتزم بخدمتها ٠ وثمة أنواع من الولاء ، ليس هذا مواطن بحثها ٠

ولقد سببت العصبية القبلية تكفكا واضحا في المجتمع العربي ما زال يعاني من آثاره الشيء الكثير ، سببه التكتل القبلي الذي خلق عداوات وحروبا داخلية استمر بعضـهـا طويلا ، ولقد أراد محمد الرسول العظيم تحقيق نظرية عالمية في الاسلام ، فحارب العصبية القبلية ، نظريا وممارسة ،فعلى الصعيد الداخلي آخى بين الناس،ومنهم المهاجرون والانصار وعلى الصعيد العالمي ، كانت رسائله الى كسرى فارس وقيصر الروم ونجاشي الحبشة ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم بها الى الاسلام ، الظاهرة الانسانية لتحقيق نظريته ، فهو رسول الله للناس كافة ٠

وسار الخلفاء الراشدون على هديه بالاتصال بالعالم الخارجي ، بالفتوحات ، فقد انتزعوا مصر والشام مـن الرومان ، والعراق من الفرس ، ونشروا فيها لغتهم ودينهم ٠

غير أن ظاهرة جديرة بالانتباه في تأليف جيوش الفتح، فقد تم تشكيل أكثر السرايا والكتائب على أساس قبلي ، فالقبيلة تشكل وحدة قتالية بقيادة رئيسها ، والكل يأتمر بالقيادة العامة للجيش ، ولقد حقق هذا التشكيل أهدافه وأبعاده ،فالقبيلة تتلاحم عضويا وتقاتل بصبر وشجاعة أكثر من الكتائب المختلطة ، ذلك لان ارتباط الفرد بقبيلته ، بقي راسخا في نفسه ، يجعله أكثر حماسة في القتال ، وهو متأثر بالعوامل النفسية الاولى ، فضلا عن ايمانه العميق بالدين وبثواب الجهاد في سبيل الله ٠

والحياة القبلية التي خلقت الفروسية في نفس العربي كانت فروسية جماعية في حين ، فردية في أحايين كثيرة ٠

والفروسية نوعان : الفروسية التي نبتت في القبيلة، وعواملها نفسية وجدانية ، ربط الفارس من خلالها بـين مصيره ومصير قبيلته ، وتفاعلا الى حدود بعيدة ، وتمثـل فيه روح الشهامة والمروءة والكرم والانفة ، تلك صفات لم تكن وقفا على الفارس ، وانما تمثلت في روح الاخرين ، نظريا وممارسة ، فقد كان أكثرهم ندبا في الملمات ، شهما في تعامله ، أنفا للدنايا ، كريما معتزا بكرامته ونسبه ، حافظا عرضه ، ولعل هذه ،أسباب في تكوين القبيلة ،وحفظها لتسلسل نسبها بأصالته ،وفي تلاحمها ،لشعور أفرادها بوحدة الدم وبالقربى ٠ حتى أنف العربي أن يكون له أخ أو قريب هجين ، هو أدنى مرتبة وأحط منزلة ٠

والنوع الثاني من الفروسية ، الصعلكة ، والصعلوك فارس لا يتمتع بصفات الفروسية الاخرى ، فأكثر الصعاليك نبذه قومه ، اما لذنب اقترفه ، واما لسفاهته ، فآثر الشر والبغي ، وأكثرهم لصوص خرجوا على المجتمع كله ـ القبيلة والمجتمع العام ـ فكانوا يغزون ويغيرون أفرادا ،أو جماعات وحد بينهم التشرد وحب المغامرة ، فأكثرهم عانى من قسوة الفقر وتذوق مرارة الجوع ، ويعتبر هذا أول دافع الـى الصعلكة ، يقول أحدهم ٠

اذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح
عليه ، ولم تعطف عليـه أقاربـه

فللموت خـير للفتى من حياتـه
فقيرا ، ومن مولى تدب عقاربـه

وللصعاليك تقاليد حفظوها ورعوها ، كأن يقطعون السبل ويغيرون على القوافل ويتقاسمون الغنيمة ،ويتعاونون في كل أمر يحل بهم ، وبعضهم كان يغير وينهب ويسلب ، ويوزع غنائمه على الفقراء كعروة بن الورد ٠

وغياب الدولة ذات التنظيم السياسي والاداري في الجزيرة العربية ، لكي تحرم القوة بين الناس وتحول دون تمادي القوي بالعقوبات التي تفرضها لحماية المجتمع من الانحراف ، ولكي تيسر سبل الحياة بتحقيق رغبات الامة ، دفع هذا الغياب بالمجتمع العربي الى مثل هذا السلوك ، التجمع القبلي وبروز ظاهرتي الفروسية والصعلكة ٠

غير أن المجتمع لم يكن سائبا بلا تنظيم يحد من التصرفات المسيئة ويكبح النزوات ، بل كانت العادات والاعراف هي السائدة ، وأحكامها المختلفة تنفذ ، ويراعيها الناس ، وقد ينبذ المجتمع من يخرج عليها ويطرده من بينه ، اذ ليس من عقوبات جسدية تفرض عليه ، ولعل العقوبة المعنوية أشد وقعا وأعمق تأثيرا ٠ذلك لان عهد الكلمة يحفظه العربي ، ويوفي به ، حتى أصبح الوفاء بالعهد والبر بالوعد ظاهرة بارزة في ذلك المجتمع ، ومنهما انبثقت قيم أخرى ٠

ـ ٦ ـ

الجزيرة العربية هي مهد العرب، وفيها نبتت جذور هذه الامة وبسقت حتى امتدت الى أقطار أخرى ، ومنها شع النور الباهر فغمر العالم كله ،فأعطاه حضارة روحية جديدة عليه ، وفي ربوعها عاش ذلك المجتمع بقبائله وأفراده ، في حدود القيم والتنظيم اللذين عرفناهما ٠

غير أن فروقا بارزة بين حياتهم في الشمال وحياتهم في الجنوب ، ففي الجنوب حضارة مميزة ، الطبيعة فيها خضراء ممرعة ، وفي الشمال صحارى ضنت عليه الطبيعة بالماء والاعشاب ، ولذلك كانت المؤثرات في نفسيتهما وعقليتهما مختلفة ، لكن التنظيم القبلي في الشمال والجنوب هو السائد ٠٠

ويقسم المؤرخون العرب الى قسمين، بائدة ومستعربة، وهذا التقسيم لا يعتمد على أسس علمية ودراسات موضوعية ثابتة ، وانما كان فيه نسيج من الاسطورة والقصة ، فيه لمحات من الواقع ، وقد نعود الى دراسته ٠

ولقد اكتفت الروايات المختلفة بالقول: انعادا وثمود وطسم وجديس وعبيل وعيد ضخم وجرهم هم العرب البائدة، أما العرب المستعربة ، فهم البقية ، وقد قسمهم النسابون الى قحطانيين وعدنانيين ٠

ومن أراد التفصيل ، فليرجع الى كتب الانساب ٠

ـ ٧ ـ

وليست الكتابة عن تاريخ الجزيرة العربية أمرا سهلا هينا ، فتاريخها تاريخ قوم امتدت جذورهم في التاريخ الغارق في القدم ، وتاريخ لغة وأدب وثقافة ، وتاريخ دين بكل عطائه الخير ونظرته الانسانية الشاملة ، تاريخ عباقرة عاشوا في الجزيرة العربية ومنها تدفقت عبقريتهم في مختلف النواحي الانسانية والعلمية ،وشملت العالم آنذاك تاريخ حضارة اتسمت بطابع خاص مميز ، فيها من روح الاسلام وسماحته ، ومن القيم الاخلاقية التي آمن بها العرب ونقلوها الى الناس كافة ٠

ذلك التاريخ لا تتسع له كتب وقد درس باحاطة وشمول ، ولعل تاريخها الحديث يغني قليلا ، وسنرى ٠

ـ للبحث صلة ـ



الحركة الأدبية

تأليف : اسكندر لوقا

عرض وتحليل : سمر روحي الفيصل

حمل القاص اسكندر لوقا أمراً اداً حين اختار الحركة الادبية في دمشق بين ١٨٠٠ ـ ١٩١٨ موضوعا لرسالة الدكتوراه في معهد الآداب المشرقية (جامعة القديس يوسف ـ بيروت) . كان اسكندر لوقا ، فيما يبدو لي ، يعي وعورة هذا الموضوع وتداخله قبل ان يقدم على انتقائه . ولعل لصفاته الذاتية ـ وأبرزها الدأب والمثابرة وتذليل الصعاب ، وهي طابع حياته وملامحه التي عرف بها ـ دخلا في هذا الانتقاء . وربما كانت رسالة الدكتوراه ، التي تتطلب موضوعاً غير مطروق من قبل ، هي التي وجهت القاص لوقا الى أن تكون وليمته الجديدة على المائدة نفسها ، التي حضنته صغيراً ، ورعته يافعاً ، وواكبت مسيرته رجلا ؛ على مائدة دمشق .

تعود وعورة الحركة الادبية في دمشق ، في الفترة موضوع البحث ، الى ضياع الملامح الذاتية للادباء في ذلك الوقت ، والى تعدد منازعهم ونشاطاتهم بين السياسة والادب . ثم تعود ، في جزء هام منها ، الى السلطة الحاكمة نفسها ، الى السلطة العثمانية التي دأبت على تحديد البلاد العربية ، وبلاد الشام بخاصة ، بحدود تفصلها عن حضارة الغرب وما يعتمل فيه من أفكار ، على أساس أن المجتمع العربي ، كما هو عليه ، مجتمع مثالي ، وأن كل محاولة لتبديله هي تخريب وافتئات على الدين . ويبدو أن كثرة كاثرة من الادباء ، حرصاً منهم على مواقعهم في مدينة دمشق ،

ساعدوا السلطة العثمانية في المحافظة على الواقع المتخلف في شتى مناحي الفكر . ثم ان المرء لا ينسى أثر الدين في نفوس العرب المسلمين ؛ ذلك الاثر الذي استغله العثمانيون أسوأ استغلال .

- ١ -

اختار الدكتور لوقا المنهج الوصفي التحليلي طريقاً الى البحث في الحركة الادبية في دمشق . وهذا المنهج سليم ، عموماً ، في الدراسات الاكاديمية ، اذ هو مسرب الدارس الى أرضية ثابتة يقيم فوقها آراءه الادبية والعلمية في الفترة موضوع الدراسة . ولقد اقتضى تنفيذ هذا المنهج عملا تاريخياً عرض فيه المؤلف المنازع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للفترة ، ليستطيع ، بعد ذلك ، استخلاص الاتجاهات الادبية السائدة .

ان هذه الدراسة ، وهي لا تتجاوز ١٧٢ صفحة ، هامة من هذا المنطلق الوصفي التحليلي ، فلقد دفعت الدكتور لوقا الى الغوص في النصوص لدرسها ، وتحليلها ، ونقدها .

لقد توقف أمام الصحف القديمة ، وتراجم الرجال ، وكتب التاريخ ، متحرراً ، كما يقول الدكتور جبور عبد النور ، من مرض العصر في الادعاء ، وتوريم الذات ، والنظر اليها بالمناظير المكبرة . بحث خلفيات الحركة الادبية فاستعرض التاريخ من ١٨٠٠ ـ ١٩١٨ ليجيز لنفسه تلمس انعكاسات هذا الموضوع التاريخي على الاحوال الداخلية في دمشق ؛ تلك الاحوال المضطربة ادارياً واقتصادياً واجتماعيا . مما أتاح له بسط منابع الثقافة ، فعرض لها من جوانبها كلها ، عرض للتعليم والطباعة وخزائن الكتب والصحافة والجمعيات الادبية والتمثيل . وقد خلص من ذلك كله الى « ان المواجهة بين مثقفي دمشق ورجال الحكم ، لم تكن مواجهة سهلة . وقد كانت الغلبة ، في هذه المواجهة ، بجانب النظام حينا ، وبجانب المثقفين حينا آخر . الا أن آثار هذه المواجهة انعكست سلباً على الحركة الادبية في دمشق ، ولفترة طويلة من الزمن . فقد حرمتها من ترسيخ جذور أدبها القومي ، وأفقدتها طائفة من كتابها النابهين الذين هجروها بحثاً عن الحرية والخبز ، وشقت صفوف الباقين منهم بالخلافات السطحية ، وحالت بين دمشق ومدن أخرى كالقاهرة وبيروت ، **فيما تبوأته من مكانة ثقافية** وحضارية » .

ما دامت الصورة على هذا النحو ، فهل كان من الممكن أن تنشأ ، تلك الفترة ، اتجاهات أدبية بالمعنى المتعارف عليه اليوم ؟

يرفض الدكتور لوقا تلمس أي اتجاه قبل العام ١٨٧٥ ، فما ترسب في أوساط مثقفي المدينة لم يكن سوى « مواقف » أملتها انتماءات أعلام الفكر ، آنئذ ، الى معطيات سلفية هي ، في جملتها ، معطيات دينية تتسم الى حد بعيد بطابع المحاكاة والتقليد . الا أن صورة هذا الواقع ، كما يقول الدكتور لوقا ، طرأ عليها تغيير واضح بعد العام الثقافية نفسها داخل المدنية » ، ومن ذلك ظهور الطباعة والصحافة والمسرح ، واتصال متنوري دمشق بأسباب اليقظة الفكرية الاوربية ، الامر الذي يسمح للدارس بالحديث عن اتجاهات أدبية أقرب الى مفهومنا المعاصر .

لقد ارتأى الدكتور لوقا تقسيم الاتجاهات التي وجدها الى ثلاثة اتجاهات رئيسية : الاتجاه السكوني (السلفي ـ المحافظ) ، والاتجاه الانتقائي (الاصلاحي) ، والاتجاه المستقبلي .

حاول الاتجاه السكوني في رأي الباحث ، قدر المستطاع ، المحافظة على الواقع المتخلف أدبياً ، لان مروجيه أيقنوا بصدق ما يفعلون ، أو حرصاً منهم على مواقعهم ، في حين حاول الاتجاه الانتقائي ان يخطو الى الامام ، فعقد موازنة بين « المسلمات العثمانية وثقافة الغرب » وطالب بالاصلاحات الشاملة ، وباصلاح الدين خاصة ، وان كنا لا نجد لهذا الاتجاه أساسا دينيا خالصا . لقد كانت هذه الخطوة أساسا صالحا قام عليه الاتجاه المستقبلي ، اذ ابتعد عن المؤثرات الدينية ، ووجد في الواقع رديفا ؛ وجد الصحافة وقد أخذت تنمو ، والكتاب وقد بدأ ينتشر ، والمسارح والاندية والثقافة الغربية وقد بدأت تتسرب الى البلاد .

ومما ساعد هذا الاتجاه على النمو ، وجود أدباء علماء أجلاء من نحو محمد كرد علي ، وخليل مردم بك ، وصلاح الدين التامي ، ومصطفى خلقي ، وشكري العسلي ، وأديب اسحاق ، وغيرهم . كان هذا الاتجاه المستقبلي بداية النهضة القومية الحديثة . ففي حين كانت الموضوعات التي تناولها الادباء السلفيون (السكونيون ـ المحافظون) بعيدة عن استيعاب حاجات العصر ومثقفيه ، فان الموضوعات التي سادت بعد ذلك كانت أقرب الى المعاصرة ، اذ عرفت القصة والمقالة والمسرحية ، وهي فنون مستحدثة ، ان لم يكن ذلك في شكلها ففي تناولها الفني على أقل تقدير .

- ٢ -

ان هذه الدراسة ، كما قلت ، لا تتجاوز ١٧٢ صفحة في خمسة فصول ، ولكن البحث (رسالة الدكتوراه) ليس هو الدراسة وحدها . فقد توفر الدكتور لوقا على اغناء الكتاب بمجموعها هامة من الملاحق في ١٣٣ صفحة . كانت هناك ملاحق لسلاطين آل عثمان ، ولولاة دمشق ، ولمدارسها ، وصحفها ومجلاتها وجمعياتها . وآثار أدبائها المخطوطة والمطبوعة ، والمؤلفات المطبوعة والمخطوطة في المدينة ، وثبت بأسماء هؤلاء الادباء بحسب سني الميلاد والوفاة ، وثبت آخر بأهم الاحداث في تاريخ الدولة العثمانية ، والكلمات والمصطلحات التركية المتداولة في العهد العثماني (هذا الثبت أكثر الملاحق فائدة ، وأبعدها تأثيراً في الدراسات السوسيولوجية التي تعتمد الكتاب مرجعاً) ، وثبت أخير بالمصادر والمراجع العربية والاجنبية التي اعتمد عليها المؤلف .

ان هذه الملاحق احتاجت الى وقت طويل ، وجهد جهيد لا يدري مقداره غير الذي حاول خوض غماره . هي ، مع حواشي الكتاب الاخرى ، تشكل مادة أولية مرتبة مبوبة تمهد للباحث الذي يريد ارتياد هذه الفترة ، وتمده ، في الوقت نفسه ، بما ييسر له عمله . ان ريادة هذا البحث تتمثل في الدراسة كما تتمثل في الملاحق على حد سواء .

- ٣ -

يقول الدكتور لوقا ان الظواهر الادبية لا تأتي عفواً ، او نتيجة انتقال مرحلي من واقع الى آخر ، ولكن ذلك يتم ، عادة ، نتيجة مواجة مستمرة بين اردات ين كل منها يسير باتجاه التصادم . وهذا صحيح في اعتقادنا أيضاً ، ولعله السبب في تسمية الكتاب باسم « الحركة الادبية في دمشق » ، اذ لا تنشأ الظواهر الادبية من الفراغ . لا بد لها من رواسب أخرى في المجتمع ، فالاتجاه السكوني يصدق على الحياة الادبية كما يصدق على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك الاتجاه الانتقائي والمستقبلي .

ان غرض البحث ، وهو عرض الحركة الادبية في دمشق ، بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي ، أبعد المؤلف عن الوقوف عند الابداع الفردي لادباء الفترة ، في محاولة لتلمس الابداع الجماعي ، أو في محاولة استبطان الوجدان الجمعي للادباء ، كما يرى علم النفس . ان التوفر في أثناء اعداد الرسالة ، على دراسة أديب من أدباء الفترة تفصيلا ، يفيد الباحث أيما افادة في الاحكام التي يدلي بها في شأن تطور الحركة الادبية في الفترة ذاتها . ان دراسة الاستاذ الرئيس محمد كرد علي مثلا تفيد في :

١ ـ اضافة الكلمات التالية الى ص ٦٦ : « عهد الى محمد كرد علي برئاسة تحرير جريدة الشرق ، وقد قبل ذلك على كره منه » .

٢ ـ اضافة كلمة « اليومية » الى « المقتبس » في ص ٦٨ ، وتدقيق الحاشية ـ٦٧ـ من الصفحة نفسها بتعديل تاريخ اصدار المقتبس من ـ ١٩٠٦ ـ الى ١٩١٥ ـ ، اذ أصدر المجلة في مصر في الرحلة الثانية اليها ، كما يشير الى ذلك كتابه خطط الشام ٦/٤١٥ ، وليس هذا الجزء ـ٦ـ من مراجع الكتاب ، كما يدل على ذلك الثبت المدون .

٣ ـ بيان أن جريدة « المقتبس اليومية » كانت سياسية . يقول محمد كرد علي في خطط الشام ٦/٤١٦ : « وكان المقتبس السياسي معتدلا بلهجته ، وطنيا بمسلكه

ينتقد ما يمكن نقده من مواطن الخلل في الادارة العثمانية ، وكان يرمي الى استحصال حقوق العرب ضمن الجامعة العثمانية الكبرى » ٠

٤ ــ التساؤل ما اذا كان تحصن الشرق ، الوارد ذكره في ص ٩٥ ، يتفق مع تدريس اللغة الفرنسية في المدارس التابعة للدولة ، المكتب الرشدي العسكري مثلا ، (المكتب : المدرسة ، تشبه المرحلة الاعدادية في مراحلنا التعليمية الان) ، ذلك الذي تخرج منه محمد كرد علي ٠

٥ ــ بيان أثر « البعثات العلمية » وحركة «الترجمة» في الثقافة السائدة الى جانب منابع الثقافة المذكورة في الفصل الثاني ٠

أ ــ فقد ورد في خطط الشام ٦/٤١٧ قول محمد كرد علي : « وفي أواخر السنة الاولى للحرب (يقصد ١٩١٤ م) أرسلني جمال باشا مع البعثة العلمية من علماء الشام الى الاستانة فجناق قلعة ،وأوعز الي بانشاء رحلةهذه البعثة» ٠ والمعروف ، تاريخيا ، أنه صدرت رسالة صغيرة عن هذه الرحلة العلمية ، كانت في سبيل الدعاوة للاتراك ، وابراز قوتهم في الحرب ، أكثر من أي جانب آخر ٠ وقد كتبها محمد كرد علي مع صحفيين آخرين ٠

ب ــ لقد أشير في الحاشية ــ٢٩ ــ من ص ــ ١٧٠ ــ الى أن محمد كرد علي قد ترجم ثلاث روايات عن الفرنسية هي : المجرم البريء (في سنة ١٩٠٧ لا ١٩٠٦ كما ورد في الحاشية) ، والفضيلة والرذيلة ، ويتيمة الزمان في قبعة ليغمان (عنوانها الاصلي : قبعة اليهودي ليغمان ، وقد ترجمها كرد علي في عام ١٨٩٤ ، ويبدو أنه طبعها في مصر ١٩١٢ كما جاء في الحاشية) ٠ ولكن كرد علي ترجم كتبا أخرى منها : كتاب « الاسماء التركية » لرضا باشا (ترجمه الى العربية والفرنسية) ، كما ترجم كتاب « تاريخ الحضارة » لشارل سينوبوس عام ١٩٠٨ ، وكتاب « حرية الوجدان » وكتاب « الحرية المدنية » وكتاب « الحرية السياسية » ٠ وهذه الكتب الثلاثة لجول سيون ما تزال مخطوطة حتى الان ٠ واذن فقد كانت هناك حركة ترجمة، ولا بأس في تلمس دورها ٠

٦ ــ ورد خطأ مطبعي في ترجمة محمد كرد علي (ص ١٠٢) ، فقد ذكر في الترجمة أنه تلقى دراسته في مدرسة ــ كامل سيباي ــ وهي ــ كافل سيباي ــ كما أعتقد ، وليس بين يدي مصدر أحيل اليه في هذا التصحيح ٠

* * *

على أية حال ، فما أردت قوله ان دراسة أديب ما تفيد في تعديل بعض الاحكام ، أو اضافة أجزاء جديدة ترفد البحث بنسغ أخرى ٠ وقد أوردت بعض الملاحظ التي يمكن الاستفادة منها في دراسة كرد علي ، أو غيره من أدباء الفترة المدروسة كالشيخ طاهر الجزائري مثلا ، وقد ترجم له كرد علي باسهاب في أول كتابه ــ كنوز الاجداد ــ ٠ الا أن ذلك كله لا يقلل من قيمة هذه الدراسة الجادة المفيدة الممتعة ، فاسكندر لوقا الرجل نموذج مفيد حقا ، ولعل نيله درجة الدكتوراه بتقدير شرف أول علامة واحدة في هذا الرجل ، ودلالة على أن في وسع المرء تحقيق طموحاته بالجهد والعمل ٠

سمر روحي الفيصل

محبّة أبويّة

لي أوسونغ

كان الزعيم العظيم للاربعين مليونا من الشعب الكوري ، الرفيق كيم ايل سونغ ، ابان النضال المسلح العسير المناهض لليابان ، يعنى بالمقاتلين الشباب الذين فقدوا آباءهم وأخوتهم وأخواتهم على أيدي العدو ، وانضموا الى صفوف حرب العصابات ، وكان يتعهدهم بالمحبة الحارة ويربيهم مقاتلين ثوريين ·

كان معظم جنود الاتصال في مقر القيادة في تلك الايام ، الذين مهمتهم الرئيسية هي الحفاظ على الارتباط ما بين وحدات حرب العصابات، هم من الفتيان الايتام الذين ترعرعوا بقيادته الشخصية حتى غدوا مقاتلين حمرا للثورة ·

لقيت الرفيق القائد للمرة الاولى بعدما انضممت الى حرب العصابات المناهضة لليابان ، في الربيع من عام ١٩٣٨ ·

ربت على رأسي ، وسألني بالتفصيل كيف أصبحت من وحدات حرب العصابات · كان عمري اثنتي عشرة سنة آنذاك ، وقد أخبرته بكل ما حصل لي ، كما لو كنت أحدث والدي : لقد مات أبي جوعا في قاعدة حرب عصابات تشون تشان زو · وقبل أن يموت مباشرة ، قال لي ويدي في يده ، أن علي أن أصطحب شقيقتي الصغيرة التي كانت آنذاك في السادسة ، الى جبل نايتوسان · وفي طريقنا الى نايتوسان ، لقينا بغتة أختنا الكبرى التي كانت قد جرحت ابان تأدية مهمة سرية الى احدى البلدات · وهكذا ، فقد تركت أختي الصغيرة معها وتابعت وحدي الى جبل نايتوسان · بلغني فيما بعد أن شقيقتيّ قد ماتتا جوعا في طريقهما الى جبل نايتوسان · أنهيت قصتي وأنا أجهش بالبكاء ·

بعدما فرغ من الاستماع الي ، جذبني الرفيق كيم ايل سونغ اليه وعانقني بهدوء · كانت عيناه مبللتين ، وعندما رأيتهما ، لم أعد أصبر على كبت الاسى في نفسي ، فانفجرت باكيا ، ووجهي مغمور في صدره ·

قال وهو يشجعني ويهلمني بالامال في المستقبل : « يا أوسونغ ، يجب أن تكبر لكي تغدو رجلا طيبا يسحق العدو ، الامبرياليين اليابانيين الذين أودوا بأبويك وبشقيقتيك ، فتصبح دعامة للبلد » ·

رحت بعد ذلك أترعرع في دفء عنايتـه • وقعت أحداث كثيرة في السنوات اللاحقة ولا يسعني أن أرويهـا كلها ههنا • أود أن أروي حدثا واحدا فقط ، وقد بقـي حيا في ذاكرتي ، على الدوام •

وقع ذلك في خريف عام ١٩٣٩ ، وكان لي من العمر ثلاثة عشر عاما آنذاك • اتفق في أحد الايام أن عسكرت وحداتنا في غابة من محافظة آنتو • ضربنا نحن جنـود الاتصال خيمة للرفيق كيم ايل سونغ ، وانتظرنا عودته •

كان قد خرج لتفقد الوحدات أبان تخييمها • كان الليل على أواخره ، ولكن لم تكن هناك علامات تشير الى عودته • وبدون وجوده ، كان داخل الخيمة يبدو فارغـا تمامـا •

تساءلت : « لماذا لم يعد بعد ؟ »

« أنا متأكد أنه سوف يعود في أية لحظة » •

« ماذا نفعل اذا توقف لقضاء الليلة في مقر أحـد الالوية ، كما فعل في مرة سابقة ؟ » عيل صبرنا ونحن ننتظر عودة الرفيق كيم ايل سونغ ، ولم نتمكن من الهدوء وبقينا ندخل الى الخيمة ونخرج منها •

قلت وأنا أنطلق على عجل : « دعونـي الان أذهب وأبحث عنه » •

كان الصمت رانيا على الغابة المظلمة • تلمسـت سبيلي بلا صوت عبر الغابة مخافة ازعاج أو ايقاظ الرجال الذين كانوا يغطون في النـوم بجانب نيران المخيم هنـا أو هنـاك •

ذهبت الى كل مكان يمكن أن يكون قد ذهب اليـه ، ولكن لم أجده • عدت وأنا أفكر لعله عاد الى الخيمة ابان غيابـي عنها •

ان هواء الليل في الغابة العميقة من الشمال شديد البرد ، يحدث القشعريرة • كان رجال حرب العصـابات نائمين ، وقد اتخذوا الاوراق المتساقطة غطاء لهم •

تسللت وأنا أسير بين الرفاق النائمين حتـى بلغت الجانب الآخر من الغابة •

وجدت هناك الرفيق كيم ايل سونغ ، محني الظهر ، يجمع الاوراق المتساقطة ويدثر بها المقاتلين النائمين •

قال بصوت مكتوم لجندي الاتصال الواقف الى جانبه :

« اذهب وأجلب بطانيتنا » •

أصر جندي الاتصال : « البطانية •• ، ليس هناك الا بطانيك أيها الرفيق القائد » • ولم تبد عليه عـلامة من يزمع أن يغادر المكان •

« الخيمة تكفينا • يجب أن يدثر هذا الرفيق جيدا لكي يدفأ ، انه مصاب بالرشح • اذهب واجلبها بسرعة ! »

كان صوته لطيفا بيد أنه حازم • لم يكن في وسـع جندي الاتصال أن يردف شيئا ، فغادر المكان بخطى واسعة الى مقر القيادة •

وعلى ضوء نار المخيم ، رأيت ملامح الرفيق كيم ايل سونغ تتحرك ببطء ، وقد انحنى ثانية يجمع الاوراق الساقطة • استطعت أن أرى بوضوح الابتسامة على محياه وهو ينظر الى وجوه المقاتلين النائمين •

تتالت أحداث كثيرة منذ ذلك الوقت وحتى اليوم ، ومع ذلك ، فما زلت أستطيع أن أرى بجلاء ، بعيون الذاكرة صورة الرفيق كيم ايل سونغ يتفقد كل واحد من المقاتلين النائمين ويجمع الاوراق الساقطة لحمايتهم من الصقيع •

ولم يكن هذا كل شيء ، فقد كان يتذكر من منهم مصاب بالرشح ، وقد أعطاه البطانية الوحيدة التي كانت متوفرة له • ما أعمق هذه المحبة ! وكيف يمكن وصـفها بمجرد عناية القائد بأحد رجاله • ليس بوسع الابوين أن يبديا لاولادهما محبة أعظم من هذه • شعرت مرة أخرى كم أنا سعيد لاني أترعرع جنديا لـه في كنف عنايتـه العطوف •

أقسمت في أعماق نفسي : سوف أقاتل ، ناذرا كل فلذة مني ، جسدا وروحا ،للثورة ، على الدرب الذي يشير اليـه ،بحيث أثبت جدارتي بمحبته التي لا تعرف الحدود وهي الاعمق من البحار والاعلى من الجبال •••

غذيت الخطى راجعا نحو الخيمة •

عاد الرفيق كيم ايل سونغ بعد قليل •

نظر الينا من حوله داخل الخيمة وهو يسأل :

« لماذا لم تناموا بعد » ؟ •

بقينا صامتين ، حسبنا أن ننظر الى بعضنا بعضا ، لا نعلم بماذا نجيب • كان علينا الان أن نضع له فراشا ، غير أنه كان قد أعطى البطانية الوحيدة لرجل حرب العصابات المصاب بالرشح •

انتابتنا العصبية ، لا ندري ماذا نفعل •

علم ما يجول في أخلادنا في الحال وقال :

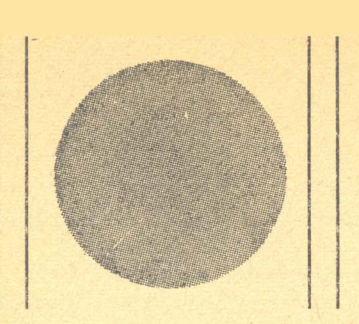
« يمكننا أن ندفأ أثناء النوم ولو بدون بطانية • لا تأبهوا وتعالوا جميعا استلقوا الى جانبي • سوف ندفأ تماما اذا نحن رقدنا بعضنا بجانب بعض » •

وحتى عندما كانت البطانية موجودة ، لم يستخدمها لوحده • لم يسعنا أن نرفض دعوته اللطيفة الملحة ، فكنا ننام دائما بجانبيه ، ونشاطره البطانية •

هكذا ترعرنا في أحضان عطف الرفيق كيم ايل سونغ، وعنايته الدافئة ، كما يترعرع الاولاد في أحضان آبائهم •

واليوم ، يترعرع أولادنا وشبابنا هم أيضا في كنف عطفه ومحبته غير المحدودين ، العميقين الدافئين ، ناعمين كل يوم بحياة جديدة سعيدة على طريق النضال الثـوري المجيد الذي أشار اليه وأناره •





● انتهت الشاعرة السورية طلعت الرفاعي من مجموعتها الشعرية « حدائق النار » ودفعتها الى المطبعة ، تعكس فيها انطباعاتها عن معارك تشرين التحريرية والبطولات التي برزت خلالها ٠

● « جزيرة الاشياء » مجموعة شعرية ، هي باكورة ربيعة أبو فاضل ، صدرت في بيروت وكتب مقدمتها ألبير ضبوط ، اعتمدت الشاعرة الاسطورة بما لا تستطيع البوح به ، تضم المجموعة تسع قطع ، تنحو الى الرمز بأسلوب سلس صادق ٠

● وفي بيروت صدر كتاب « كوابيس بيروت » للاديبة المعروفة غادة السمان يضم مائتين وست كوابيس ، كتبتها في ضوء شمعة راعشة ، تحت ضغط الانفجارات المحمومة وهي تنتقل بين عوالم متعددة متنافرة من الخوف والقلق حينا ، ومن الرؤيا الحالمة حينا آخر ٠

● «الارق» الرواية الجديدة للاستاذ عبد المنعم الصاووي صدرت عن دار الشعب في القاهرة ، تضم عشر حكايات عن شخصيات نموذجية اختارها ، عبر فيها بأسلوب التحقيق الصحفي عن أسباب هزيمة عام ١٩٦٧ بغية رفض الهزيمة ومجتمعها ٠

● حسين عفيفي الكاتب المصري ، صدر له في القاهرة كتاب عنوانه « عصفورة الكناريا » ، لا يستعمل الكاتب مع حبيبته لغة الحوار المعروفة، بل خلط الشعر بالنثر ، ونظم الكلمات برقة وشفافية ، ليروي حكاياته من حبيبته ٠

● الاهتمام بالمسرح والموسيقى آخذ بالازدياد ، فقد أصدر الناقد المصري فتحي العشري ، كتابه « صرخات فوق المسرح » درس فيه أبرز المسرحيات العالمية منذ أيام اليونان حتى اليوم ٠ وانتهى أيضا فؤاد الظوهري الموسيقار المصري من تأليف كتاب بعنوان « تاريخ الفن الموسيقي الغنائي » ، قيَّم فيه الحركة الموسيقية والغنائية منذ عهد عبده الحامولي الى يومنا هذا ، وتناول بالدراسة حياة مشاهير الموسيقيين وأعمالهم في تلك الفترة ٠

وفي الكويت صدرت في سلسلة المسرح العالمي ، ثلاث مسرحيات لـ « جون هلنتجتون تنغ » هي ظل الوادي وزفاف السمكري والراكبون الى البحر ، ترجمها الى العربية الدكتور أحمد النادي ، وقدم لها بدراسة عن أعمال الكاتب وحياته « يونا ايلس فيرمور» ٠

● المفكر الاسلامي الاستاذ عبد الرزاق نوفل ، يوالي اصدار كتبه عن العلم والايمان ، فقد بدأت بكتابه « الله والعلم » الذي صدر في عام ١٩٧٥ ، وكان آخرها كتابه « من أسرار الروح » الذي صدر في القاهرة ٠

الكتاب دعوة الى العودة للروحانية ، بعد طغيان المادية ، فالروحانية ـ كما يقول ـ هي الاصل في حياة الانسان الذي خلق روحانيا ، ثم ظهرت المادية والدعوة لها، اذ اتخذ الدعاة من النجاح العلمي الذي حققه الانسان وسيلة للدعوة للمادية ،ويعتقد المفكر أن هذا النجاح يجب أن يكون وسيلة للدعوة الروحانية ٠

● تصدر قريبا عن دار الثقافة في القاهرة الرواية الرابعة للدكتور عبد الرحمن منيف ، بعنوان « حين تركنا الجسر » كان يعدها للصدور في بيروت ، فحالت أحداثه الدامية بينه وبين ما أراد ٠

● « الادب التجريبي» كتاب جديد صدر في تونس ،يعرف به مؤلفه الاستاذ عز الدين المدني ، الادب التجريبي وعلاقته بالحياة الادبية والفنية ، ويصفه بأنه انطلاق من المعلوم الى رحاب المجهول ٠ وخروج عن المألوف ٠ فالدعوة الى التجريب ـ في مفهوم الكاتب ، هي حرية الخلق والابداع ، يتخطى بها كل الظروف والمحظورات ، وهي حرية أقرب الى الفوضى ، لانها لا تعترف بالتراث ولا تنظر الى الماضي ، وذهب الكاتب الى أبعد من هذا ، عندما طالب بتطوير اللغة العربية وتطويعها صياغة ونحوا ، لتستوعب لغة الحياة اليومية ، لغة الجمهور الذي يعالج مشاكله في كل موقع !!

● « سوق عكاظ » عنوان كتاب صدر في المملكة العربية السعودية ، تحدث فيه مؤلفه الاستاذ علي حافظ عن العادات والتقاليد التي كانت متبعة في سوق عكاظ القديم ·

● « زوج في المزاد » رواية جديدة لجيلان حمزة ، تعبر بصدق عن مشاعر أرملة رحل عنها زوجها ، وتحلل نظرة المجتمع اليها ومواجهتها له والصراعات التي تعتلج في داخل نفسها ومع الناس ·

● « الاتجاهات الفنية في الشعر العراقي » هو موضوع الرسالة التي تقدم بها الطالب محسن محمد الحسين باشراف الدكتور عبد المحسن طه ، لينال الدكتوراه ·

● القاصة الناشئة بهية عبد الرحمن الباكر ، نشرت قصتها الاولى « سنة أولى طب » ، في دولة قطر ، ويبدو أن الكاتبة قد تأثرت الى حد بعيد بقصة الصحفي المصري المعروف مصطفى أمين المسماة ب « سنة أولى حب » ·

● الاستاذ محمد حسين عبد الله ، قدم للقارىء العربي كتابه « الحركة المسرحية في الكويت » فيه عرض شامل للمسرحيات التي قدمت على خشبة المسرح الكويتي في مدة ثلاثين عاما ، سبق لكاتب أن ألف كتاب « الواقعية في الرواية العربية » و « كيلوباترا في الادب والتاريخ » و « الاسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ » و « الحركة الادبية والفكر في الكويت » ·

● أعيدت طباعة كتاب « تاريخ الكتاب » لمؤلفه الانكليزي ـ سفندال ـ ، تحدث فيه عن شكل الكتاب عند قدماء المصريين منذ خمسة آلاف سنة ، وعند اليونان والرومان ، وعن المواد التي استعملت في صناعة الكتاب ، كورق البردي والجلود والخشب والحرير والرصاص ، الى أن اخترع الصينيون صناعة الورق ، التي أثمرت تطور صناعة الكتابة حتى القرن الخامس عشر الذي أنشأت فيه تجارة الكتب ، اذ أخذ الكتاب شكله الجديد ، كالعنوان وترقيم الصفحات وتنظيم السطور ، ثم أدخل عليه نظام التجليد ، ثم تطور الكتاب من الطباعة الخطية والحفر على النحاس والطباعة على الحجر، الى أن اخترعت آلة المونتيب· المعروفة غادة السمان يضم مائتين وستة كوابيس ، كتبتها

● « الارق» الرواية الجديدة للاستاذ عبد المنعم الصاوي عن شخصيات نموذجية اختارها ، عبر فيها بأسلوب التحقيق

● صدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق كتاب « مدرسة اللقلق » ، وهو مجموعة قصص للاطفال ، ترجمها عن الانكليزية الاستاذ عيسى فتوح ، وتضم ثماني عشرة حكاية ، لكتاب روس منهم ابليا تسكوفسكي وسيلفي فالجال وألكسي تولستوي ، وغيرهم ·

● يعد الدكتور مصطفى الشكعة عميد كلية اللغة العربية في جامعة عين شمس كتابا عن أبي الطيب المتنبي ، اهتم كثيرا بحياته وشعره خلال رحلته الى«العراق العجمي» وصلته بالوزير الاديب أبي الفضل بن العميد والملك البويهي الديلمي ، تلك الفترة التي لم تنل اهتماما من بعض دارسي المتنبي ·

● في سلسلة « الهلال » صدرت الترجمة العربية للرواية الفرنسية ـ مدام بوفاري ـ للكاتب غوستاف فلوبير · ترجمها الناقد العربي المعروف المرحوم الدكتور محمد مندور ·

● تصدر قريبا للشاعر نزار قباني ثلاث مجموعات شعرية عن أحداث لبنان الدامية · الاول ـ أحبك·· أحبك ـ والثاني ـ ثلاثية الموت ـ والثالث ـ يوميات بيروت ـ · ويعكف الشاعر الكبير على كتابة مسرحية نثرية استقى مادتها وحوادثها من الحرب اللبنانية الاهلية !

● حسين عبد الله العمري وعبد الجبار زكار حققا في اليمن كتاب « تاريخ مدينة صنعاء » للرازي ، اعتمدا في تحقيقهما على نسخة خطية في باريس من أصل تسع نسخ موزعة في العالم · قدما له بلمحة عن حياة المؤلف ، وأكدا على أن الرازي لم يكن من أصل يمني أو من ـ الابناء ـ الذين جاؤوا الى اليمن مع الحملة الفارسية في القرن السادس وانما هو من أسرة قدمت مع الطبرانيين ـ نسبة الى طبرستان ـ مع الامام الهادي بن يحيى بن الحسين(٨٣٥ ـ ٩٢١م)واستوطنت صنعاء·وهو غير العالم الطبيب المعروف.

الكتاب يؤرخ الفترة التي بدأت بعهد النبي محمد (صلعم) ، ويتميز بحديثه عن الجوانب العسكرية والثقافية في صنعاء ·